

تاريخ التصوف في وسط آسيا

د . طارق أحمد شمس

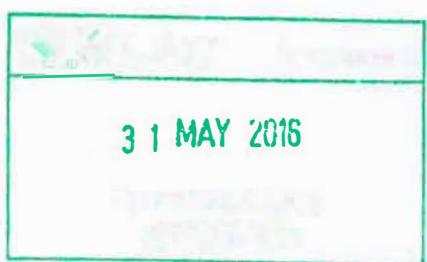


c.1

A
297.4
S5282t

د. طارق أحمد شمس

تاريخ التصوف في وسط آسيا



دار الفارابي

المحتويات

٩	المقدمة.....
	الفصل الأول
١١	جغرافية بلاد ما وراء النهر وأبرز مدنها.....
	الفصل الثاني
٤٥	دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر وأبرز الأسر الحاكمة ...
	الفصل الثالث
١٠٣	الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر
١٥٩	الخاتمة.....
١٦١	المصادر والمراجع

الكتاب: تاريخ التصوف في وسط آسيا

المؤلف: د. طارق أحمد شمس

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

٢٠١٤٦١ (٣٠٧٧٧٥) - فاكس: (٠١) ٣٠٧٧٧٥

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٣٠

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: نيسان ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-554-4

© جميع الحقوق محفوظة

تابع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المقدمة

قليلة هي الدراسات العربية التي أتت على تاريخ وسط آسيا، وقد يعود ذلك إلى قلة الاهتمام بتاريخ هذه البلاد العريق، أو عدم إتقان لغتها، أو لكون بعضها كان جزءاً من الاتحاد السوفياتي السابق.

وإذا عدنا إلى تاريخ تلك البلاد التي يطلق عليها اسم «تركمستان»، لوجدنا أنها كانت تملك حضارة عريقة ومتنوعة الينابيع، فهي متأثرة بالحضارة الصينية من جهة وبحضارة خراسان من جهة أخرى، كما أنها تحمل الكثير من الخصائص الديموغرافية السكانية المتنوعة.

هذا دعا عن أنها كانت ممراً للقوافل التجارية، فربطت بين الصين، وأسواق المشرق العربي وأوروبا، وهو ما عرف حينذاك بطريق الحرير. هذه المنطقة المميزة جغرافياً، والتي تضمُّ بعض أبرز المدن العريقة: «سمرقند - بخارى...». شهدت ظهور حركة التصوف بعد دخول الإسلام إليها عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م، وذلك للخصائص السمحاء التي تحملها الطرق الصوفية من إيمان وأخلاق، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان.

ومع تزاحم الناس أمام أبواب المتصوفة، سارع الحكام والأمراء في بلاد ما وراء النهر إلى تبني هذه الطرق، وتقريب رجال المتصوفة،

والتلذذ على أيديهم، ما رفع من شأن رجال الصوفية، فبلغوا المراكز العليا داخل الدولة.

هذا يدفع إلى طرح الإشكالية الآتية:
ما هي الظروف التي ساعدت على انتشار التصوف في وسط آسيا؟.

من هم أبرز المتتصوفة الذين عرفوا في تلك البلاد؟.
ولا بدّ في طبيعة الحال من أن نأتي على تعريف بلاد ما وراء النهر، مع أبرز مدنها، والإمارات التي حكمتها.

إن هذه الدراسة لم تكن سوى لتسد حاجة القارئ إلى المعرفة بطرق الصوفية المتأثرة بمدارس وسط آسيا، والتي يصعب الحصول على المعلومات الكافية حولها، وهو ما عانيته من خلال جمعي للمادة المطلوبة، لندرة الدراسات العربية حول هذا الموضوع من ناحية، ولأن معظم ما كتب عن هذه البلاد كان من قبل الرحالة الغربيين ومعظمهم لم يترجم وهي كتب يصعب العثور عليها.

وتتوزع هذه الدراسة على ثلاثة فصول:

- ١ - الفصل الأول: جغرافية بلاد ما وراء النهر وأبرز مدنها.
- ٢ - الفصل الثاني: دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، وأبرز الأسر الحاكمة.

٣ - الفصل الثالث: الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر.
آملًا أن أكون قد حققت من خلال هذه الدراسة الغاية التي سعيت إليها، والله ولي التوفيق.

طارق أحمد شمس

الفصل الأول

جغرافية بلاد ما وراء النهر وأبرز مدنها

أ - التسمية

بلاد «ما وراء النهر»، هي البلاد التي تقع بين نهري جيحون (أموداريا) Amu-Darya و سيحون (سيرداريا) Sir-Darya، حسب التسمية العربية^(١)، وهو الاسم الذي عُرف عند الجغرافيين العرب، ووصفوه على الشكل الآتي:

- الإصطخري (ت ٩٥١ هـ / ٣٤٠ م)، في مسالك الممالك
«ما وراء النهر من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآللة وكراع وسلح...»^(٢).

- ابن حوقل (ت ٩٧٧ هـ / ٣٦٧ م)، في صورة الأرض
«وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيراً...»^(٣).

(١) فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة، ط ١، ١٩٨١، ص ١٤٥.

(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٣٨٦-٣٨٧.

(٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢،

ص ٣٨٤.

سمرقند بوصفه إیاها قائلاً: «... وأنزهها وأجمعها طیباً وحسناً
مترشّف سمرقند...»^(۱).

وفي ذکرہ لما يرفع من أموال من بخارى، (الخرج) ذکر:
«وراء النهر بخارى ولها قهندز ألف ألف ومئة ألف وتسعة وثمانون
ألفاً ومئتا درهم».

- **اليعقوبي**: (ت بعد ۲۹۳ هـ / ۹۰۵ م) في كتاب البلدان
ذكر بلاد ما وراء النهر باسم «ترکستان»^(۲)، والجدیر ذکرہ أن
اسم «ترکستان» عند العرب كان يقصد به بلاد الترك بشكل عام التي
في ما وراء النهر^(۳).

وأتى **اليعقوبي** على ذکر بعض مدنه، وأبرزها: «وبخارى
بلد واسع فيه أخلاقٍ من الناس من العرب والعجم ولم يزل شديد
المنعنة... وخرج البلد يبلغ ألف ألف درهم...»^(۴).

اما سمرقند، فوصفتها قائلاً: «... وسمرقند من أجل البلدان
وأعظمها قدرًا وأشدتها امتناعًا وأكثرها رجالًا وأشدتها بطلاً وأصبرها
محاربًا...»^(۵).

- **المقدسي** (ت ۳۸۰ هـ / ۹۹۰ م) في أحسن التقاسیم في ذکرہ
لنهر «جیحون» یورد:

«... وعليه کور جلیلة ومدن عده...»^(۱).
وفي ذکرہ لإقلیم المشرق، الذي جعله المقدسي إقلیماً واحداً
يقول: «أجل الأقالیم وأکثرها أجلة»^(۲).

- **یاقوت الحموی** (ت ۶۲۶ هـ / ۱۲۲۸ م) في كتاب معجم البلدان
«.. وما وراء النهر من أنزه الأقالیم وأخصبها وأکثرها خيراً...
فاما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون في
جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله..»^(۳).

بينما لم یرد إقلیم «ما وراء النهر» بهذا الاسم عند بقیة الجغرافین
على سبيل المثال:

- **ابن خرداذبة** (ت ۲۸۰ هـ / ۸۹۴ م) في المسالك والممالک
يذکر أن المنطقة الممتدة من خراسان وصولاً إلى «کابل من
ثغور طخارستان»، بما فيها من المدن الكبرى: بخارى، سمرقند،
فرغانة، وقد أطلق عليها اسم «المشرق»^(۴).

وقد أوضح أهمية «بلاد ما وراء النهر»، من خلال ذکرہ لمدينة

(۱) المقدسي، أحسن التقاسیم في معرفة الأقالیم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ۱۹۷۷، ص ۲۲۷.

(۲) المصدر نفسه، ص ۲۱۲.

(۳) یاقوت الحموی، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ط ۲، د.ت، ج ۵، ص ۴۵.

(۴) ابن خرداذبة، المسالك والممالک، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ۱، ۱۹۸۸، ص ۴۵ - ۳۱.

جغرافية بلاد ما وراء النهر وأبرز مدنها

تحت سيطرة شعوب آسيا الوسطى...» وأصبح نهر أموداريا (جيحون) هو «الحد الفاصل بين محيط نفوذ كل من الطرفين»^(١).

ويضيف بارتولد أن بلاد ما وراء النهر، كانت تقطنها في البداية شعوب آرية تسربت إليها أعداد غفيرة من العناصر التركية، لتصبح هذه البلاد ذات أغلبية تركية^(٢).

ولذلك عرف الجغرافيون تلك البلاد المعروفة باسم تركستان على الشكل التالي: «تركستان منطقة واسعة في وسط آسيا، ويقصد بها بلاد الترك، إذ كانت مجال انتقالهم ومواطن قبائلهم، وهي منطقة سهلية في الغرب وهضبة في الشرق، وبينهما منطقة جبلية عالية ضمن البلاد التركستانية، تغذى كلا الطرفين بالمياه وتصل بينهما بممراتها الشهيرة»^(٣) وقد قسمت إلى قسمين:

تركستان الشرقية، وهي تخضع حالياً للصين.

تركستان الغربية، وقد قسمت إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وطاجكستان، وقازاقستان، وتركمانستان، وقيرغيزيا^(٤).

وقد اقتصر إطلاق اسم تركستان عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى على تركستان الشرقية، وأطلق على

(١) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٢) المرجع نفسه.

(٣) محمد علي البار، المسلمين في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، جدة: دار الشروق، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

- ابن رستة (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م)، في كتاب الأعلاق النفيسة جعل بلاد ما وراء النهر من ضمن ما أطلق عليه اسم «إيرانشهر»، التي كانت تضم «بلاد خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز والجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل والجزيرة والشام وسورستان»، وجعل بخارى وسمرقند وكيش وفرغانة وغيرها من مدن بلاد ما وراء النهر ضمن كور^(*) خراسان^(١).

- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) في كتابه معجم البلدان «... وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً... فاما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله...»^(٢).

- ويورد المستشرق الروسي بارتولد: «إن الحدود السياسية بين إيران وтурان^(*) كانت عرضة لتغيرات عديدة على مر العصور التاريخية، في عهد الهاخمانشين^(**) مثلاً، وفي عهد السيادة العربية كذلك، كانت جميع بلاد ما وراء النهر تكون جزءاً لا يتجزأ من الشرق الأدنى، ولكن ابتداءً من القرن العاشر الميلادي وقعت المنطقة نهائياً

(*) كور: جمع كورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى ولاية لتلك القرى من قصبة أو مدينة، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦ - ٣٧.

(١) ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بربيل، ١٨٩٣، ص ١٠٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ط ٢، د.ت، ج ٥، ص ٤٥.

(*) توران: يقصد بها بلاد ما وراء النهر بأجمعها، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٧.

(**) الهاخمانشين: يقصد بها سلالة الفرس الأخمانيين.

لها بدلاً، ولا يراغون فيها نضجاً، ولا يرون إلا ما كان اغتصاباً كما هي عادة السباع، وليس عيشهم إلا من غارة أو طلب ظبي نافر أو طير طائر...»^(١).

١- تعريف نهر جيحون

نظراً إلى كون مصطلح «بلاد ما وراء النهر» أورده المؤرخون والجغرافيون المسلمين على المنطقة الممتدة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال^(٢)، فلا بُدّ من أن نأتي على ذكر هذين النهرين من خلال ما أورده بعض هؤلاء الجغرافيين والبلدانيين. أما نهر جيحون فقد ورد عند:

- ابن خرداذبة^(٣)، في المسالك والممالك، فهو يظهر أن مخرج نهر جيحون «نهر بلخ من جبال التُّبُّ» ويمُرُّ بـ بلخ... والترمذ... وأمل... وخوارزم حتى يصب في بحر جرجان^(*).

- ابن رستة، في كتاب الأعلاق النفيسة: «ومخرج جيحون من بلاد التبت يقبل من المشرق مع الصبا فيمر ببلاد وخاران... ثم يصير إلى أعلى حدود بلخ... ثم ينبعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٥١٤.

(٢) بديعة محمد عبد العال، التقسيمية نشأتها وتطورها لدى الآثار، القاهرة: الدار الثقافية، ط ١٦، ٢٠٠٩، ص ٩.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(*) جبال التبت: يقصد بها جبال التبت.

(*) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طريا وخرasan - ياقوت، معجم البلدان، ج ٢ ص ١١٩.

تركستان الغربية اسم بلاد ما وراء النهر، وهو نهر جيحون، وحددت هذه البلاد في المنطقة الواقعة بين نهري سيحون (سيراداريا) شرقاً وجيحون (أموداريا غرباً)^(١).

ولما كانت خراسان تعتبر مركزاً لانطلاق المسلمين نحو تلك البلاد، من عاصمتها «مرو»، فقد اتبعت بلاد ما وراء النهر إلى خراسان، واعتبر عامل خراسان مسؤولاً من قبل الخليفة عن بلاد ما وراء النهر^(٢).

وعند العودة إلى الجغرافيين والبلدانيين المسلمين يظهر بوضوح أن اسم تركستان عندهم إنما أطلق على المنطقة الشرقية منها: فعند ياقوت وفي تعريفه لتركستان يقول: «هو اسم جامع لجميع بلاد الترك... وحدُّهم الصين والتبت والخزر والكماك والغز... وأول حدُّهم من جهة المسلمين فاراب.. ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة...»^(٣).

أما القرزيوني فيعرف تركستان بقوله: «اسم جامع لجميع بلاد الترك... وأكثرهم أهل الخيام، ومنهم أهل القرى... ممتازة عن جميع الأمم بكثره العدد، وزيادة الشجاعة والجلادة وصورة السباع، عراض الوجوه، فطس الأنوف، عبل السواعد، ضيقو الأخلاق، والغالب عليهم الغضب والظلم والقهر وأكل لحوم الحيوانات، لا يريدون

(١) محمد علي البار، المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣.

جليله ومدن عدّة، وينشعب منه أنهار كثيرة ويقلب إليه الأنهر الستة»،
بعدها يأتي على ذكر الكور التي يمرُّ بها هذا النهر^(١).

- ويتوسع ياقوت الحموي في معجمه بذكر نهر جيحون وأصل
التسمية: «... سمي بذلك لاحتياجه الأرضين...».

ثم ينقل أن «أصل اسم جيحون بالفارسية هرون، وهو اسم
وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان، فنسبه الناس إليها
وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ»^(٢).

أما الاسم الآري القديم لنهر جيحون فهو، كما أورده بارتولد
«فخشوا أو وكسوا»^(٣).

وقد أطلق اسم «طخارستان» على المقاطعات التي تقع على
ضفتي نهر جيحون، وكانت قصبتها الاقتصادية مدينة بلخ، أما
المناطق الجبلية في المجرى الأعلى لنهر جيحون فأطلق عليها اسم
طخارستان العليا^(٤).

٢- نهر سيحون

نهر سيحون من الأنهار الكبيرة التي ورد ذكرها عند الجغرافيين
والبلدانين العرب، وأبرزهم:

- ابن فضل الله العمري (ت ١٣٤٩هـ / ١٣٤٩م)، في كتابه
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

(١) المقدسى، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) ابن رستة، الأعلام النفيسة، المصدر السابق، ص ٩٣.

إلى أن يصير إلى الترمذ... ثم إلى آمل ثم إلى خوارزم فيمرُّ بمدينتها
فإذا انحدر من المدينة انشعبت منها أنهار وفيوض ذات اليمين وذات
الشمال فصارت منها بطائح وأجام ومروج أسفل من مدينة خوارزم...
وينصب في جيحون أنهار عدّة...»^(١).

- الإصطخري، في مسالك الممالك: «فاما جيحون فإن عموده
نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخان^(*)... فيجتمع إليه أنهار في
حدود الختل والوحش فيصير منه هذا النهر العظيم»^(٢).
كما ويأتي على ذكر المدن التي يمرُّ فيها، وهي التي وردت
سابقاً.

- المقدسى، في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: يورد
«ووُجِدَتْ في كتاب بالبصرة أربعة أنهار من الجنة في الدنيا: «النيل
وجيحون والفرات والرسَّ»^(٣).

وفي موضع آخر يورد أن «أخفَّ المياه عشرة، دجلة والفرات
وجيحون...»^(٤).

ثم يعود فيأتي على ذكر نهر جيحون وأهميته: «هذا نهر يشق
الإقليم (إقليم المشرق)، ويفيض في بحيرة خوارزم، وعليه كور

(١) ابن رستة، كتاب الأعلام النفيسة، المصدر السابق، ص ٩١-٩٢.

(*) مقاطعة وخان، وهي مقاطعة معروفة بصعوبة المسلوك - بارتولد، ص ١٤٧.

(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٩٦.

(٣) المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

ويضيف ابن حوقل أنه «إذا امتدّ يكون نحو ثلثي جيحون»^(١)، ويقع على ضفة النهر إقليم فرغانة^(٢).

والجدير ذكره أن نهر سيحون، حسب الإصطخري وابن حوقل، عموده نهر قراداريا الذي يعتبر المنبع الأساسي لنهر سيحون.

أما النهر الثاني الذي يصب فيه ويغذيه، فهو «خيلام أو نارين»، وأطلق على الجزء الواقع بين قراداريا وخيلام اسم «ميان رودزان»، ومعناها: ما بين النهرين. هذه المنطقة كانت الحد الفاصل بين أملاك المسلمين في وسط آسيا وبلاط الترك^(٣).

أما ياقوت فقد عرّف سيحون: «... نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند، يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاط الترك»^(٤). وهكذا، فإن نهر سيحون ينبع من مرتفعات بامير في الشمال، ويصب فيه نهر قراداريا، كما نهر خيلام (يسمى حالياً نارين)، ثم يتوجه غرباً نحو مدينة خوقد، بعدها يمر بعدة مدن ليصل إلى طشقند شماليّاً، ويصب في بحيرة خوارزم (بحر الآرال)^(٥).

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٣) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٤.

- ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٤٢٠.

- بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٥) محمد علي البار، المسلمين في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، جدة: دار الشروق،

ط ١، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

«نهر سيحون الأخذ على بلاد فرغانة، ويمده نهر الشاش، ويخرج إلى حائط عبدالله بن حميد حتى يصب في بحر طبرستان»^(١).

- المقرizi (ت ١٤٤٥ هـ / ١٨٤٥ م)، في المواقع والاعتبار. حيث جعل من نهر سيحون مع الأنهر المباركة التي تأتي من أرض الجنة بقوله: «وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهر الأربع تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي وراء البحر المظلم، وهي: سيحون وجيحون والفرات والنيل، وأن تلك الأرض من أرض الجنة، وأن تلك القبة من زيرجد، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور»^(٢).

ويضيف المقرizi في موضع آخر محدداً جهة كل من سيحون وجيحون قائلاً: «سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ..»^(٣).

والجدير ذكره أن نهر سيحون ورد عند ابن حوقل باسم «نهر الشاش»: «وهو نهر عظيم ويعظم من أنهار تجتمع إليه في حدود الترك والإسلام وتجتمع إليه عدة أنهار ليصل بعدها إلى بحيرة خوارزم».

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣، ج ١، ص ١٢١.

(٢) المقرizi، المواقع والاعتبار بذكر الخطوط والآثار، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨ هـ، ج ١، ص ٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٧.

بـ- أبرز المدن التي اشتهرت في بلاد ما وراء النهر

بلاد ما وراء النهر، أو تركستان، أو آسيا الوسطى، عرفت العديد من المدن الكبرى والغنية التي شهدت أحداثاً تاريخية بارزة في التاريخ الإسلامي، وقد تحولت بعض هذه المدن إلى عواصم كبيرة شهدت حروبًا للسيطرة عليها بين كبار قادة ذلك الزمان، كما عانت الكثير من التدمير والتخريب على أيدي المغول في العصور الوسطى.

أما أبرز تلك المدن فهي:

١- أندجان = أندوكان - أندكان عند ياقوت: «هي من قرى فرغانة»^(١)، ويذكر أن أندجان كانت تضم آثاراً إسلامية، على الرغم من أن المسلمين افتتحوها في القرن التاسع للميلاد فإن هذه الآثار كانت تعود إلى زمن سبق دخول الإسلام إليها^(٢). وكانت أندجان تتبع كورة نسيا السفلى، التي ضمت بالإضافة إلى أندجان، زندراش ومرغينان وبرنك واشتican^(٣).

وينسب إليها أبو حفص عمر بن محمد بن طاهر الأندكاني الصوفي^(٤).

٢- أوزجند - أوزكند - يوزكند ذكرها الإصطخري: «أوزكند آخر مدن فرغانة مما يلي دار

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٤) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦١.

خرج بلاد ما وراء النهر

أما خراج تلك البلاد، التي وضعها قدامة بن جعفر (ت ٩٣٢هـ / ١٥٣٢م)، من ضمن أعمال خراسان، فهي: «ارتفاع خراسان على ما كان فوق عليه عبدالله بن طاهر لسنة (٩٢٢هـ / ١٤٣٥م)، مع ثمن السبي والغنم والكريسيس، ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم»^(١).

آسيا الوسطى

أما مفهوم «آسيا الوسطى»، فيورد بارتولد في تعريفه: «آسيا الوسطى شبه منحرف تحدّه من الجنوب جبال الهملايا، ومن الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال تيان شان، ومن الشمال الآلتاي، ويابلونوي، وستانوفوي، ومن الشرق جبال كبخان وكوكونور».

وتبلغ مساحتها حوالي ستة ملايين كيلو متر مربع. وهي في مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب والمنخفضات»، وأبرز العناصر التي تسكنها: «بالإضافة إلى الصين، العنصر التركي والمغولي»^(٢).

(١) قدامة بن جعفر، بذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٨٨، ص ٦٣.

(٢) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٧.

وأضاف إليه ياقوت: «وهي خصبة جداً كما نسب إليها ياقوت: «عمر بن موسى الأوشي» و«عمران ومسعود ابنا منصور الأوشي الفقيه» وغيرهما^(١).

٤- بخارى

وردت مدينة بخارى عند المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين ومن أبرز هؤلاء:

ابن خرداذة: «ولبخارى قهندز ولها من المدن: كرمينة وطواويس وبمجكث ووردانة وب يكند»^(٢)، ويحدد خراجها نسبة إلى قهندزها بـ «الآف ألف ومئه ألف وتسعة وثمانون ألفاً ومئتا درهم»^(٣) وهي نسبة كبيرة دالة على غنى المدينة وما يتبعها من المدن والقرى.

- ابن رستة: «ولبخارى بلد واسع فيه أخلاق من الناس من العرب والعجم... وخارج البلد... يبلغ ألف ألف درهم»^(٤).

- الإصطخري: اعتبر بخارى أول الكور في ما وراء النهر بعد نهر جيحون، وكانت في زمانه دار إمارة خراسان. ويصفها قائلاً: « فهي مدينة في مستوى، وبناؤها خشب مشبك ويحيط ببناؤها قصور وبساتين وسكل وقرى... ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة، فلا يرى في أضياف ذلك كله مفازة، ولا خراب، ومن دون هذا السور على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور

الحرب ولها سور وربض وقلعة ومياه جارية وبساتين، وليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة، ربما بلغت القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومزارعهم»^(٥).

ويتوسع المقدسي في وصفها فيقول: «على بابها نهر يخاض ليس له جسر، يحيط بربضها حائط، ومدينتها عامرة فيها الأسواق والجامع والقهندز والماء يدخل إلى الجميع، ولها أربعة أبواب، ولا أعلم في مدن هذه الكورة قهندزاً غيره»^(٦).

يضيف ياقوت إلى ما ورد قوله: «وليها متجر الأتراك... ينسب إليها جماعة، منهم: علي بن سليمان بن داود الخطيب أبو الحسن الأوزكندي»^(٧).

٣- أوش

عرفها الإصطخري، حيث اعتبرها ثالث مدن فرغانة من حيث المساحة قائلاً: «مدينة أوش وهي عامرة مسورة بها قلعة ودار إمارة وهي ملاصقة للجبل الذي عليه مرقب الأحراس على الترك»^(٨). والمقدسي وصفها بقوله: «كثيرة الأنهر لها فضائل وهي رحبة منيعة، جامعها وسط الأسواق، قريبة من الجبل كثيرة الخير واسعة المياه وبها رباط عظيم يقصده المطوعة من كل جانب»^(٩).

(١) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٠.

(٤) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٦) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨١.

(٧) ابن خرداذة، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٩) ابن رستة، كتاب الأعلاف النفيسة، المصدر السابق، ٢٩٢.

فرسخاً في مثله، ليس فيه أرض بائرة، ولا ضيعة عطلة، اسم قصبتها نموجكت». ثم يعدد مدنهما ويضيف أن لها ستة عشر ألف قرية^(١) وهي دار المملكة وموضع الدواوين^(٢).

أما القزويني (ت ١٢٨٣ هـ / ١٢٨٢ م)، فأورد في ذكر بخارى: «بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة، طيبة... ولم تزل بخارى مجتمع الفقهاء ومعدن الفضلاء، ومنشأ علوم النظر... وكانت الرئاسة في بيت مبارك ونسبهم إلى عمر بن عبد العزيز، وتوارثوا تربية العلم والعلماء كابراً عن كابر... ولم تُر مدينة كان أهلها أشد احتراماً لأهل العلم من بخارى»^(٣).

وقال ياقوت في وصفها: «من أعظم مدن ما وراء النهر وأصلها... ولا شك أنها مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيدتها»^(٤).

ويضيف... وليس بخرasan وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى ولا أكثر أهلاً على قدرها»^(٥).

لقد كانت بخارى ومن خلال ما ظهر من الكتب الجغرافية، من أعظم مدن ما وراء النهر والعالم الإسلامي أيضاً، فقد لعبت

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٣.

والمساكن والمحال والبساتين التي تعد مع القصبة ويسكنها من يكون في جملة القصبة شتاءً وصيفاً، سور آخر، قطره فرسخ^(*)، ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين ولها قلعة خارج المدينة تتصل بها مقدار مدينة صغيرة، وفي داخلها قلعة أخرى، ومسكن ولاة خراسان من آل سامان في هذه القلعة، ولها ربع ومسجد الجامع على باب القلعة... وحبسها في القلعة وأسواقها في ربضها».
ويضيف الإصطخري مظهراً أهمية بخارى: «وليس بخرasan وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى ولا أكثر أهلاً على قدرها»^(١).

ثم يأتي على ذكر نهر «السغد» الذي يمر في المدينة من خلال ربضها وأسواقها ليصل إلى الطواحين والضياع والمزارع المحيطة بها^(٢).

- المقدسي في ذكر الخصائص من الأقاليم، اعتبر أنه ليس أحسن من أهل حمص وبخارى^(٣) وأنها من أطيب البلدان^(٤). ويصفها قائلاً: «أما بخارى فإنها كورة غير واسعة الرقعة، إلا أنها عامرة حسنة، يدور على خمس من مدنها حائط سعته اثنا عشر

(*) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال - المعجم الوسيط، أستబول: المكتبة الإسلامية، د.ت، ص ٦٨١.

(١) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.

قهندز والجامع في الحصن والقهندز خارج منه له باب، وللمدينة ثلاثة أبواب، ولها ربش وسرادقات وهي أول المداين من أعلى النهر»^(١).

ينسب إليها ياقوت: «أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى الفضير صاحب الصحيح أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث ومجموعة من العلماء الآخرين»^(٢).

٦ - خجند - خجندة

عرّفها الإصطخري قائلاً: «أما خجندة فمتاخمة لفرغانة وهي على غربى نهر الشاش ليس في عملها مدينة غير كند، ولها نهر عظيم يسافر فيه بالمتاجر والمير»^(٣).

ووصفها المقدسي بقوله: «مدينة نزية ليس بهذا الجانب أطيب منها، وسطها نهر جارٍ والجبل متصل بها وهي رأس الحدّ، وقد مدحها العقلاء ونعتها الشعراة»^(٤).

وأضاف ياقوت: «وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون... وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها، ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جارٍ، والجبل متصل بها»^(٥).

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧.

(٣) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٥) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٧.

دوراً بارزاً، نظراً إلى موقعها الجغرافي، كسوق رئيسية مرّ فيها طريق الحرير، فربطت بين تجارة الصين وأسواق آسيا الغربية، وهي نظراً إلى ذلك، عرفت مصانع الحرير والمنسوجات المختلفة المصنوعة من القطن، كما اشتهرت بصناعة الأبسطة ومصنوعات الفضة والذهب، كما كانت مركزاً للصيرة استبدل فيها تجار آسيا الشرقية والغربية «السكة»^(١).

أما أصل التسمية فهو مشتق من بخار وهو العلم بلسانهم، نظراً إلى ما عرفته من علماء وحكماء^(٢).

كما يعتقد أن الاسم مشتق من قيهارا وهي كلمة سنسكريتية بمعنى الدير، نسبة إلى معبد بوذي كان فيها منذ ما قبل الإسلام^(٣).

خرج منها العديد من العلماء، منهم الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ/١٠٣٦ م) وابن سينا (ت ٤٢٨ هـ/١٠٦٩ م) وغيرهما^(٤).

٥ - ترمذ

ذكرها المقدسي قائلاً: «هي أجلُّ مدينة على جيحون، نظيفة طيبة أحد العرصات، مفروشة أسواقها بالأجر، والماء يسطع جانبها ويقلع المراكب إليها من كل جانب، وعليها حصن ولها

(١) أرمينوس فامبرى، تاريخ بغداد، ترجمة أحمد محمود الساداتى، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت، ص ٢٥.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، مصر: عين للدراسات، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

للناحية بجملتها» وقصبتها في زمن ياقوت كانت «الجرجانية»، وأما أصل التسمية على ما يورد ياقوت، فهو يعود إلى أحد الملوك القدماء الذي أبعد أربعمائة من أهل مملكته إلى هذه الناحية وبعد فترة من الزمن طلب من بعضهم أن يتقصى أخبارهم، فوجدهم قد بنوا الأكواخ واصطادوا السمك وجمعوا الحطب لشيه، ولما بلغ ذلك الملك سمي ذلك المكان خوارزم، لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والخطب رزم، فصار خوارزم».

زارها ياقوت عام ١٢١٦ هـ / ١٢١٩ م، فوجد «أكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، وفي النادر أن يكون قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة»^(١).

توسع نفوذ خوارزم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ليضم مناطق واسعة في آسيا الوسطى وأفغانستان وبلاد فارس إلى أن سقطت في أيدي المغول، لتضم فيما بعد عام ١٣٨٨ هـ / ١٢٩٠ م إلى دولة تيمورلنك^(٢). أما أبرز علمائها: الخوارزمي واضع علم الجبر واللوغاريمات، وأبو علي ابن سينا المعروف بالطب والفلسفة، وأبو الريحان البيروني المشهور في الرياضيات والفلكل^(٣).

(١) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٢) كي ليسترانج، بلدان الخلقة الشرقية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٤٩٢.

(٣) زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥، ج ١، ص ٣٢٩، ج ٢، ص ٤٥٤ و ٢٣٦.

ونسب إليها مجموعة من أهل العلم، منهم أبو عمران موسى ابن عبدالله المؤدب الخجندي^(٤).

٧- خوارزم - خيوة

وردت عند المقدسي: «هي كورة على حافتي جيحون، قصبتها العظمى «بهيطل»، ولها قصبة أخرى بخراسان»، ويميز أهل خوارزم من غيرهم من سكان حافتي جيحون قائلاً: «وهم يخالفون أهل الجانبين في الرسوم واللسان والخلق والطبع».

ثم يضيف في وصفها: «وهي كورة جليلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة... لا ينقطع المنازل والبساتين، كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات، مفيدة لأهل التجارات، أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب».

وهو يصف متعلميهم: «وأقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي قد تقدم وزجا»^(٥).

أما طباعهم فهي كالبربر، «متصلة المنازل غزيرة الأنهر، معدن السمك والأغنام، ومطرح الغُز والأتراك»^(٦).

ويوضح ياقوت أن اسم خوارزم ليس لمدينة «إنما هو اسم

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٢، ٣٤٨.

(*) زجا: تيسر واستقام [يعلمه]، وزجا الخراج أي تيسرجايته، المعجم الوسيط، ص ٣٨٩.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

- سمرقند

تعتبر مدينة سمرقند من أبرز مدن بلاد ما وراء النهر، وتعود أهميتها والمكانة التي كانت عليها إلى موقعها الجغرافي، فهي تقع على ملتقى طرق تجارية كبرى، تربط ما بين الهند وإيران، عبر بلخ ومرو، بالإضافة إلى خصوبة أرضها^(١).

وقد وردت عند الجغرافيين والرحالة الذين أظهروا أهميتها وموقعها البارز، ومن هؤلاء:

- ابن حوقل: يصف سمرقند ومحيطها، ويعتبرها من أنذه الأماكن، فالمناطق المحيطة بسمرقند: «لا تقطع خضرتها ولا تتصرم زهرتها... مشتبكة البساتين والحضراء والرياض والميادين، إنها ثوب ديجاج أخضر... فهي أزكى بلاد الله... وأحسنها أشجاراً وأيمتها وأطيبها ثماراً...»^(٢).

- المقدسي، في تعريفه مدينة سمرقند: «قصبة الصغد»^(*) ومصر الأقاليم، بلدي سري جليل عتيق، ومصر بهي رشيق... وماء غزير بنهر عميق... بناء قوي سني وثيق... وعيش هني إليها الطريق، وحمل المتعان من كل فح عميق، علوم كثيرة... وخيل ورجال ومال

(١) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(*) الصغد: هي أرض واسعة ذات بساتين، وأشجار وفواكه، ومياه، ومدن عاصرة، ولها نهر يسمى الصغد، ابن الوردي، خربدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور الزناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٨، ص ١٢٥.

دقيق ذو رساميق جليلة ومدن نفيسة وأشجار وأنهار، جيدة الجواري
ردية الغلمان... بناؤهم طين وخشب»^(١).

- ابن بطوطة (ت ١٣٧٩هـ / ١٣٧٩م): «هي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين عليه التواعير تسقي البساتين»^(٢).

استمرت سمرقند تحافظ على مكانتها السياسية والاقتصادية مع سيطرة تيمورلنك على بلاد ما وراء النهر، فخضعت له، حيث اتخذ منها عاصمة لمملكته، فتوسعت عمرانياً وسكانياً حتى استحقت أن تكون عاصمة سيد الشرق تيمور العظيم.

ويرد وصف لسمرقند من خلال سفارة ملك قشتالة، إنجريكي الثالث، الذي كان قد بعث بسفارة من قبله إلى تيمورلنك في العام ٦٨٠٦هـ / ١٤٠٤م، ويظهر من خلال هذه السفارة أن إقليم سمرقند توسع ليصل إلى الضفة الشمالية لنهر جيحون، وأن المنطقة بكاملها من ضفة نهر جيحون وامتداداً إلى ما وراء سمرقند مكتظة بالسكان، لأن الأرض غنية بالمحاصيل»^(٣)، ونظراً إلى مكانة سمرقند وموقعها، مرّ بها طريق الحرير. لذا ظهر من خلال هذه السفارة غنى أسواق المدينة وهو ما أورده سفير مملكة قشتالة بقوله: «إن بلاد

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي الكتاني، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٥، ج ١، ص ٤٢٠.

(٣) سفارة إلى تيمورلنك، ترجمة سهيل زكار، دمشق: دار التكونين، ٢٠٠٥، ص ٢٢٢.

لانتصاراته في الهند، وهو من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأكبر مساجد آسيا الوسطى^(١).

٩ - خشقند (الشاش)

ذكرها القزويني بقوله: «من أنّزه بلاد الله وأكثرها خيراً، وكانت عامة دورهم يجري فيها الماء وكلها مستترة بالخضرة»^(٢). وردت عند الحميري (ت ١٤٩٥ هـ / ١٩٠٠ م): «والشاش مدينة جليلة من عمل سمرقند، وليس بخراسان وما وراء النهر كورة ولا إقليم على مقدارها في المساحة، أكثر منابر وقرى عامرة من هذه الناحية.. والشاش في أرض مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومنتزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية الترك، وأهلها سطوة ومنعة»^(٣).

أما ياقوت فقال: «... فهي بما وراء النهر، ثم ما وراء نهر سيحون، متاخمة لبلاد الترك، وأهلها شافعية المذهب، وإنما أشاع بها هذا المذهب مع غلبة مذهب أبي حنيفة في تلك البلاد». ويضيف ياقوت: «... وأبنائهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كلّها مستترة بالخضرة من أنّزه بلاد ما وراء

(١) جاستن مروذى، تيمورلنك، ترجمة مايا أرسلان، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق، ص ٥٣٨.

(٣) الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٣٣٥.

سمرقند ليست فقط غنية بمواد الطعام، بل أيضاً بالصناعات، حياكة الحرير... وكذلك بالسجاد وبالحرائر والأقمشة... بالإضافة [إلى] التوابل»^(٤).

ومن أبرز أعلام سمرقند

- أبو منصور محمد بن أحمد السمرقندى (٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م)، صاحب كتاب تحفة الفقهاء^(٥).

- أبو الليث نصر بن أحمد السمرقندى (٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م)، صاحب كتاب بستان العارفين وتنبيه الغافلين، وهو من أئمة الحنفية من الزهاد المتتصوفين^(٦).

- أبو منصور الماتريدي (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م)، وهو من أئمة علم الكلام^(٧).

وتضم سمرقند ضريح قثم بن العباس، وضريح الإمام البخاري، وقبّر تيمورلنك الذي يعتبر آية في الفن المعماري الآسيوي^(٨). كما يوجد فيها العديد من المدارس القديمة، بالإضافة إلى مسجد باسم ببي هانم زوجة تيمورلنك، الذي بناه هذا الأخير تخليداً

(١) سفارة إلى تيمورلنك، المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٢) الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملائين، ط ١٥، ٢٠٠٢، ج ٥، ص ٣١٨.

(٣) المرجع نفسه، ج ٨، ص ٢٧.

(٤) المرجع نفسه، ج ٧، ص ١٩.

(٥) إحسان بنت سعيد خلوصي، الطريق إلى سمرقند، دمشق، مطبعة هاشم، ط ١، ١٩٩٠، ص ٧٨.

ووصفها ياقوت قائلاً: «مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة بلاد تركستان... كثيرة الخير واسعة الرستاق، يقال كان بها أربعون منبراً، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً... وبفرغانة في الجبال الممتدة بين الترك وبينها من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورود والبنفسج وأنواع الرياحين مباح ذلك كله لا مالك له ولا مانع يمنع الأخذ منه، وكذلك في جبالها، وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره»، ينسب إليها «حاجب بن مالك بن أركين أبو العباس التركي الفرغاني»^(١).

١١ - كاشغر

وردت عند ياقوت: «هي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون»^(٢).

كما وردت عند الحميري في الروض المعطار: «كثيرة الخيرات، فيها متاجر وبضائع، وهي على نهر صغير»^(٣).

كانت من أهم مدن تركستان الشرقية وعاصمتها مدة طويلة^(٤).

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

(٣) الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص ٤٨٩.

(٤) محمد بن موسى الشريف، علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر، ص ٨٣ - ٨٤.

(دون دار نشر ودون تاريخ).

النهر، وقصبتها بنكث ولها مدن كثيرة»، ولكنها في زمان ياقوت كانت مخربة وقد أظهر ذلك بقوله: «وقد خربت جميعها في زماننا، خربها خوارزم شاه محمد بن تكش، لعجزه عن ضبطها وقتل ملوكها وجلا عنها أهلها».

أما أبرز علمائها فهو: «أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي... مات سنة (٩٧٦/٥٣٦٦) وكان أولد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة»، كما ينسب إليها «أبو الحسن علي بن الحاجب بن جنيد الشاشي»^(١).

١٠ - فرغانة

وردت عند الإصطخري: «فرغانة اسم الإقليم وقصبتها أخسيكت، وهي مدينة على شط نهر الشاش... وليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة، ربما بلغت القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومزارعهم، ولفرغانة كور لكل كورة منها عدة مدن لكل مدينة رستاق فيه عدة قرى»^(٢).

أما القزويني فعرفها قائلاً: «فرغانة ناحية على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، متاخمة بلاد الترك، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة، على مذهب أبي حنيفة، وأحسن الناس صورة، كانت ذات خيرات وغلات وثمرات...»^(٣).

(١) ياقوت: معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

ذكرها السمعاني قائلاً بأنها: «من أشهر البلاد من نواحي فرغانة، وقد أصبحت منذ عهد القراخانيين أهم مدن المنطقة»^(١).

٤- نخشب - نصف - قرشي:

وردت عند ياقوت: «هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق، بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة كبيرة من أهل العلم في كل فن»^(٢).

وعند القزويني: «مدينة مشهورة بأرض خراسان، منها الأولياء والحكماء ينسب إليها الحكيم ابن المقفع...»^(٣).

ونخشب أو نصف، هي مدينة مشهورة في التاريخ عند المسلمين، واسم نصف قلبه العرب «من الاسم المحلي وهو نخشب، أما الاسم الحالي وهو قرشي فلم تتخذه المدينة إلا في القرن الرابع عشر». كان يجري في وسطها نهر، وتقوم على ضفته دار الإمارة والطريق بينها وبين بخارى حوالى التسعين ميلاً^(٤).

أما أبرز المدن التي اندثرت فهي:

١- أسيفجان

ذكرها ياقوت قائلاً: «اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة...»

(١) السمعاني، حيدر آباد؛ مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٩٦٢، ج١٢، ص١٩٤.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، نج٥، ص٢٨٥.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص٤٦٦.

(٤) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص٤٨٠.

١٢- كش (شهرسبز)

اعتبرت من أبرز مدن الص Gund^(*)، تراجع دورها في عهد السامانيين، يطلق عليها اسم شهرسبز.

قال عنها المقدسى: «بلد كبير له مدينة وربض... بناؤهم طين ونخشب مثل بخارى، وهي خصبة ومنها تحمل الباكيير (الأئمار التي تدرك أولًا)... وهي كبيرة الأعناب الجيدة، والمزارع العذبة الطيبة كبيرة، إلا أن ماءها ضيق ونهرها ينقطع وأهلها غاغة»^{(**)...}^(١).

وذكرت عند القزويني: «مدينة بقرب سمرقند حضية... وفي عامة دورها الماء جاري والبستان...»^(٢).

١٣- مرغلان

عرفت باسم مرغينان، تقع إلى الجنوب الشرقي من وادي فرغانة^(٣).

قد تكون هي «مرغلان» التي وردت عند ياقوت ويدكرها قائلاً: «قرية من قرى كش (كش)^(٤).

(*) الص Gund: يمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى خمسة أقاليم، الص Gund ومنه بخارى وسمرقند وخوارزم ويختلف عن إقليم خراسان الذي يقع جنوبه، ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٣، ص٤٠٩.

(**) غاغة: والمعنى الغوغاء (غوغاء الناس)، ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د.ت، ج٨، ص٤٤٤.

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٢٢٥.

(٢) القزويني، آثار البلاد، المصدر السابق، ص٥٥٤.

(٣) محمد بن موسى الشريف، علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص٨٦.

(٤) ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص١٠٨.

هذه المدن في معظمها لعبت دوراً أساسياً في تاريخ بلاد ما وراء النهر، تحولت بعضها إلى عواصم سياسية واقتصادية بارزة، فكانت جزءاً أساسياً من تاريخ تلك البلاد تقاتل الأسر الحاكمة للسيطرة عليها، لتحكم من خلالها في سياسة المنطقة، ولتحقق أهدافها السلطوية ولترفع من مكانتها كقوة لا يمكن تخطيها.

لذا نجد كتب الرحلات والجغرافيا في العصور الوسطى تأتي على ذكرها وتبيّن أهميتها ودورها ومكانتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى العسكرية.

كانت من أعمق بلاد الله وأنجزها وأوسعها خصباً وشجراً ومياماً جارية ورياحاً مزهراً، ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسفيجاب، لأنها كانت ثغراً عظيماً، فكانت تعفي من الخراج، وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام في تلك الأرض...» وكان شاه محمد بن تكش بن أكسب أرسلان بن آق سنقر، عندما ملك بلاد ما وراء النهر لم يستطع حفظ تلك البلاد «السعة مملكتها، فخرب بيده أكثر تلك الثغور وأنه بها عساكره»^(١).

٢- بيكند

ذكرها ياقوت قائلاً: «بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة بخارى، لها ذكر في الفتوح، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمان... كل بلدة بما وراء النهر لها مزارع وقرى إلا بيكند فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر أكثر منها، بلغني أن عددها نحو ألف رباط...»^(٢).

٣- فربرو

قال ياقوت: «بليدة بين جيحون وبخارى، بينها وبين جيحون نحو الفرسخ، وكان يعرف برباط طاهر بن علي، وقد خرج منها جماعة من العلماء...»^(٣).

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.

الفصل الثاني

دخول الإسلام
إلى بلاد ما وراء النهر
وأبرز الأسر الحاكمة

قبل دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، كانت تلك البلاد قد دخلتها أقوام من الأتراك في القرن السادس للميلاد، حيث ظهرت ولايات خاصة بهم، وكان هؤلاء الأتراك قد تأثروا بالثقافات الصينية والإيرانية المحيطة بهم، وبالتالي ظهرت عندهم الديانات: الزرادشتية والكونفوشيوية والبوذية والشامية وعبادة النار، وهي الديانات المعروفة في كُلٌّ من الصين وإيران أيضاً. ومن الممالك التي عرفت في تلك المنطقة حينذاك:

- ١- مملكة طخارستان على جانبي نهر جيحون، وعاصمتها بلخ^(١).
- ٢- مملكة صغانيان إلى الشمال من نهر جيحون، وعاصمتها شومان^(٢).
- ٣- مملكة الصغد بين نهري سيحون و جيحون، وعاصمتها سمرقند، ومن مدنها بخارى^(٣).

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سليمان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٤٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٩.

دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر وإبرز الأسر الحاكمة

«الأحنف بن قيس التميمي» وهي تلاحق ملك الفرس يزدجرد إلى نهر جيحون^(١).

ولم تعرف بلاد ما وراء النهر أي جيوش عربية بعد ذلك، إلى أن بعث الخليفة عثمان بن عفان عامله على البصرة «عبد الله بن عامر» إلى خراسان لإخضاعها، فدخل عاصمتها مرو، وبعد هذا النصر عبر القائد العربي «الأحنف بن قيس» نهر جيحون، حيث خشي أهالي بلاد ما وراء النهر من قتاله فصالحوه، واستخلف قيس بن الهيثم على تلك البلاد^(٢).

ومع نقض أهالي خراسان للصلح الذي عقدوه مع المسلمين، بعث معاوية بن أبي سفيان إليهم «قيس بن الهيثم»، عام ٥٤٢ هـ / ٣٦٢ م، فدخل بلخ^(٣) وخرّب معبدًا حتى «سألوا الصلح ومراجعة الطاعة فصالحهم قيس»^(٤).

إلا أن باقي ما وراء النهر بقي خارجًا عن حكم العرب، فولاها معاوية لعيid الله بن زياد، وكان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره، «قطع النهر في أربعة وعشرين ألفاً»، وكانت حاكمة

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار النشر للجامعين، ١٩٥٨، ص ٥٧٤.

- الطبرى، ج ٥، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

٤ - مملكة فرغانة على جانبي نهر سيحون، وعاصمتها جخندة^(١).

٥ - مملكة خوارزم قرب بحر خوارزم، وعاصمتها الجرجانية^(٢).

٦ - مملكة أشروسنة إلى الشرق من فرغانة، وعاصمتها بنجكت^(٣).

٧ - مملكة الشاش إلى الشمال من نهر سيحون، وعاصمتها بنكث^(٤).

دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر

دخل الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب منذ العام ١٨ هـ / ٦٣٩ م، واستمر في عهد الخليفة عثمان بن عفان، ليتوسع انتشار الإسلام في شامل أفغانستان، ثم ليتوقف هذا الانتسار ببرهة من الزمن، في فترة الفتنة التي عرفتها الدولة الإسلامية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ت ٤٠ هـ / ٦٦١ م).

ثم يعود ليتشير من جديد مع القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي (ت ٩٦ هـ / ٧١٥ م)، الذي يعود إليه الفضل في فتح بلاد ما وراء النهر عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م^(٥).

وأول احتكاك بين العرب المسلمين وسكان ما وراء النهر يعود إلى العام ٤٢ هـ / ٦٤٢ م، عندما تقدمت القوات العربية بقيادة

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٥) الطبرى، تاريخ الطبرى، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٩٩٨، ج ٨، ص ٩.

مع المسلمين، فنلاحظ أن عدداً من ولة الأمويين على خراسان، كانوا دائماً ما يغزون تلك البلاد ويخضعونها من جديد. على سبيل المثال:

- عام ٦٨٠ هـ / ٢٨٠ م، غزا مسلم بن زياد، والي يزيد بن معاوية على خراسان، خوارزم، فصالحه أهلها، كما فعل مثلهم أهالي سمرقند^(١).

- وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥ هـ / ٢٨٥ - ٣٠٥ م) تولى ولاية خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي المهلب ابن أبي صفرة، الذي قام بالعديد من الغزوات في بلاد ما وراء النهر، وتلاه في ذلك كل من يزيد بن المهلب، والمفضل بن المهلب، والمغيرة بن المهلب ثم ولده يزيد من بعده^(٢).

والجدير ذكره أن تلك الفتوحات التي عرفتها بلاد ما وراء النهر حتى ذلك الحين كانت مجرد غزوات لم تأخذ شكل الفتح النهائي، لذلك لاحظنا أنها كانت تتكرر على الأماكن نفسها عند تولية القادة الجدد على خراسان.

قتيبة بن مسلم وببلاد ما وراء النهر

مع تولي قتيبة بن مسلم (ت ٩٦ هـ / ٧١٥ م)، ولادة خراسان عام ٧٦٥ هـ / ١٤٥ م، بدأ العمل على إخضاع بلاد ما وراء النهر

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٥٨٩.

بخارى «خاتون»، قد خشيت من جيش المسلمين، فأرسلت إلى الترك تستعين بهم في حربها «فلقيهم المسلمون فهزموهم، ووحدوا عسكرهم، وأقبل المسلمون يخبرون، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف الف ودخل المدينة...»^(١).

وينقل أن معاوية ولّى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان، «فقطع النهر... فلما بلغ خاتون عبوره النهر حملت إليه الصلح... ودخل سعيد مدينة بخارى، ثم غزا سعيد بن عثمان سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى...»^(٢).

وعام ٤٤٨ هـ / ١٠٤٨ م، دخل إلى خراسان، من قبل معاوية، الحكم ابن عمرو الغفارى «الصفانى»، وهو من أقاليم بلاد ما وراء النهر^(٣). وفي العام ٥٤ هـ / ١١٧٣ م، عمد والي خراسان الأموي عبيد الله ابن زياد إلى قطع نهر جيحون باتجاه بخارى، واعتبر أول عربي يقطع هذا النهر، وافتتح بعضاً من بلاد ما وراء النهر^(٤).

إلا أن ابن الأثير أورد أن أول من قطع هذا النهر هو سعيد بن عثمان بن عفان عندما كان والياً لمعاوية على خراسان^(٥).
ويبدو أن أهالى بلاد ما وراء النهر كانوا دائماً ما ينقضون الصلح

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٥٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٨٩، ج ٢، ص ٥٠٦.

بشكل نهائي، وذلك بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٧٠٤ هـ / ١٣٨٦ م^(١).

وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ٧١٥، حيث اتسعت دائرة الفتوح الإسلامية، فعرف ذلك العهد ثلاثة من القادة المسلمين وهم: قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم ابن محمد الثقفي، وموسى بن نصير^(٢). فمع العام ٨٧ هـ / ١٤٧ م بدأ قتيبة بن مسلم بغزو «بيكند»^(٣)، وبعد قتال شديد طلب أهلها الصلح فكان لهم ما أرادوا، إلا أنهم سرعان ما غدروا بعامله عليهم «ورقة ابن نصر» وقتلوه، فعاد إليهم قتيبة وقاتلهم حتى أُنْزَل بهم الهزيمة^(٤). بعدها توجه قتيبة نحو بخارى، فأخضع الإمارات الصغيرة المستقلة عنها في البداية وذلك بغية حصار بخارى ومنع المساعدة عنها، ومن هذه الإمارات: «كش» و«نخشب»، وكان ذلك في العام ٨٨ هـ / ١٤٨ م^(٥).

إلا أن أمراء بلاد ما وراء النهر من الترك حشدوا جيوشهم وخرجو لاعترافه، يدعمهم أمراء الصغد، لمنعه عن بخارى، وانضم

(١) أرمنيوس فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى، القاهرة: دار المعارف، ط٣، ص٧٦.

نهضة الشرق، د.ت، ص٦١.

(٢) سعد بن محمد الغامدي، الفتح الإسلامي لبلاد وادي السندي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحلية ٩، ١٩٨٨، ص٢٩.

(٣) بيكند: وهي تقع بين جيحون وبخارى، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥٣٣.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص٥٩١.

(٥) الطبرى، المصدر السابق، ج٨، ص١٨.

إليهم أمير فرغانة وحاصروها قتيبة وجشه^(١)، وساعد الصراع الذي ظهر بين أمراء الترك قتيبة على فك الحصار^(٢).

ويورد فامبرى أن قتيبة استطاع أن يستميل بعض أمراء الترك ومنهم حاكم سمرقند، ووقعت العهود مع بعضهم^(٣).

بينما يعتبر البلاذري أن سمرقند سقطت بعد قتال، حيث استسلم أهلها وصالحوه على «ألفي ألف درهم في كل عام، وعلى أن يصلوا في المدينة فدخلها... واتخذ مسجداً، وخلف بها جماعة من المسلمين...» وكان في صلحه بيوت الأصنام والنيران، فأخرجت الأصنام فسلبت حليتها وأحرقت، وكانت الأعاجم تقول إنّ فيها أصناماً من استخف بها هلك، فلما أحرقها قتيبة بيده أسلم منهم خلق^(٤).

أما بخارى، فكانت مملكتها «خاتون» لا تزال تحكمها حتى ذلك الوقت، فلم تجد بدأً من التسليم بالفتح الإسلامي، بعد الاقتناع بعدم جدوى القتال^(٥).

وفي العام ٩٣ هـ / ١١٧، فتح قتيبة مدن خوارزم من دون قتال^(٦).

(١) النرجسي، تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى، القاهرة: دار المعارف، ط٣، ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٣) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص٦٦.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص٥٩٢.

(٥) الطبرى، ج٨، ص٢٠.

- البلاذري، المرجع السابق، ص٥٩١.

(٦) الطبرى، المصدر السابق، ج٨، ص٣٦.

طرائق دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر

اتبع قتيبة بن مسلم الباهلي عدة طرق بغية إدخال الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر وترسيخه بين السكان المحليين، ومن أبرز هذه الطرائق:

- ١- فتح المساجد في المدن الهامة (بخارى - سمرقند).
- ٢- فتح الرابط والخواائق^(١).
- ٣- توطيد النفوذ العربي الإسلامي في المدن ذات المراكز التجارية الهامة، حيث أُنْزَل عدداً كبيراً من العائلات العربية المسلمة فيها، ومنها طشقند (الشاش)، وفرغانة^(٢).
- ٤- تقديم المكافآت لكل من يؤدي الصلاة في المسجد ولو مرة واحدة أسبوعياً.
- ٥- الطلب من أئمة المساجد قراءة القرآن باللغة الفارسية، التي كانت اللغة الرائجة في تلك البلاد حينها^(٣).
- ٦- العمل على نشر اللغة العربية بشكل واسع^(٤).
- ٧- تعيين إداريين مسلمين في الوظائف الإدارية في مختلف المدن والقرى الكبرى^(٥).

(١) موئر سير وليلام، الخلافة صعودها وبروزها وسقوطها، بيروت، ١٩٦٣، ص ٣٦٥.

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٦٠٦.

(٣) النرشخي، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٦٧.

وما بين الأعوام ٩١ - ٩٧ هـ / ٧١٥ - ٧٠٩ م، توسع حكم المسلمين ليشمل المناطق الممتدة من وادي نهر جيحون إلى بلاد الصعد وإقليم فرغانة وب يكند وخوارزم وأرمينية، حتى كاشغر على حدود الصين، كما دانت لقتيبة ولايات أوزبكستان وطاجيكستان وغيرها^(١).

بذلك تكون الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر قد مرّت بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: امتدت من العام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م، سيطرت خلالها الجيوش الإسلامية على منطقة طخارستان.

المرحلة الثانية: من العام ٩٠ هـ / ٧٠٨ م، فتحت خلالها بخارى، ووضعت شروط الصلح بين سمرقند والمسلمين.

المرحلة الثالثة: بين الأعوام ٩١ - ٩٣ هـ / ٧١١ - ٧٠٩ م، وصلت خلالها الجيوش العربية إلى وادي نهر جيحون وببلاد الصعد.

المرحلة الرابعة: بين الأعوام ٩٤ - ٩٧ هـ / ٧١٢ - ٧١٥ م، أخضعت فيها المناطق الواقعة على نهر جيحون، كما وصلت الجيوش الإسلامية إلى حدود الصين، وفتحت مدن كاشغر والشاش وفرغانة^(٢).

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوفاز، مصر:

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤١.

النهر، خصوصاً أن الأمويين كانوا قد أبقوا على الأمراء الأتراك على إمارتهم لقاء ولائهم للخلافة العربية، وفق معاهدات عسكرية مالية^(١). فاستغل هؤلاء الأتراك ضعف الدولة الأموية والصراعات التي دارت في أواخر أيامها، فقادت الثورات على العمال الأمويين، وكان أبرزها:

- ١- ثورة أمير فرغانة، بعد مقتل قتيبة^(٢).
- ٢- ثورات بخارى وسمرقند^(٣).

وقد واجهت الدولة الأموية هذه الثورات، واستطاع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ / ٧١٩ - ٧٢١ م) اتخاذ سلسلة من الإجراءات ساعدها على دخول الأتراك في الإسلام، ليتحولوا شيئاً فشيئاً إلى قوة مدافعة عن الإسلام مقابل غزوات الأتراك الشرقيين وغاراتهم على بلاد ما وراء النهر^(٤).

وأبرز القادة الأمويين الذين واجهوا غزوات الأتراك الشرقيين هما: أسد بن عبد الله القسري (١١٧ - ١٢١ / ٧٣٥ - ٧٣٨ م)، ونصر ابن سيار (١٢١ - ١٢٩ / ٧٤٦ - ٧٣٨ م)^(٥).

والجدير ذكره، أن سليمان بن عبد الملك ولّى يزيد بن المهلب

(١) أرمينوس فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٤) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٥) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

- ٨- بناء المدارس الإسلامية، مما شجع على قيام نهضة ثقافية عربية إسلامية ساهمت في نشر اللغة العربية^(٦).
- ٩- إسقاط الجزية عن كل من يعلن إسلامه^(٧).

بلاد ما وراء النهر بعد قتيبة بن مسلم

كان قتيبة بن مسلم والحجاج الثقفي، قد دعما سعي الوليد بن عبد الملك إلى نزع ولاية العهد من أخيه سليمان وجعلها في ولده عبد العزيز، ومع موت الوليد (٩٦ / ٧١٤ م)، وتولي سليمان الخلافة (٩٦ - ٩٨ / ٧١٤ - ٧١٧ م)، خشي قتيبة انتقام الخليفة الجديد ومن خلعه عن ولاية خراسان. وساعت العلاقة بينه وبين سليمان فبعث إلى الخليفة برسول يحمل ثلاثة كتب، أحدها يهنته فيه بالخلافة، والآخر يعلمه فيه فتوحه ونكايته، وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم...».

وفي الكتاب الثالث ورد: «لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتومنني لأنخلعنك وأملأنها عليك رجالاً وخيلاً». إلا أن الجندي من كان مع قتيبة «كرهوا خلع سليمان فأجمعوا على خلع قتيبة»، فتأمروا عليه وقتلوه^(٨).

بعد مقتل قتيبة بن مسلم تراجع النفوذ العربي في بلاد ما وراء

(٦) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، بيروت: دار النهضة، ١٩٨٦، ص ٦٢٤.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٥٩٩.

(٨) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

كما ألغى العديد من القرارات التي كانت مفروضة زمن أسلافه من الخلفاء الأمويين، فألغى جمع الخراج من الفلاحين الذين دخلوا في الإسلام وأرفق ذلك بتعزيز الدعوة إلى الدين الإسلامي^(١).

ومن سلسلة التغيرات التي أجرتها عمر بن عبد العزيز على تلك البلاد، عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، وولأها الجراح بن عبدالله الحكمي^(٢) وأرسل إليه كتاباً يطالبه فيه باستخدام العدل والحق مع أهل خراسان^(٣). ليعزله فيما بعد ويعين مكانه عبد الرحمن بن نعيم القشيري^(٤).

كما رصد عمر بن عبد العزيز مبلغ مئة دينار من بيت المال لكل داعية، وهو ما ساهم في زيادة الدعاة من ناحية، وفي دخول أهالي بلاد ما وراء النهر في الإسلام بشكل جماعي، بعد أن كان فردياً في السابق^(٥).

إلا أن هذه السياسة المعتدلة في كسب ود وولاء سكان بلاد ما وراء النهر سرعان ما تبدلت مع وفاته، حيث عادت الفتنة والثورات في تلك البلاد مع عودة الولاة إلى فرض الضرائب وجمع الثروات^(٦).

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، بيروت: دار العلم للملائين، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٤٩.

(٢) الطبرى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٩.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٩٧، ج ٩، ص ١٥٢.

(٦) الطبرى، ج ٨، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٧١٥ هـ / ٧١٥ م) خراسان، بعد مقتل قتيبة^(١). ومع تسلمه أعمال خراسان، قاد عدة فتوحات، كان أبرزها: فتح جرجان وطبرستان^(٢).

عمر بن عبد العزيز وببلاد ما وراء النهر

مع تسلم عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩-١٠١ هـ / ٧١٩-٧١٧ م)، استطاع من خلال السياسة التي اتبعتها ومن دون قتال، أن يدخل العديد من السكان في بلاد ما وراء النهر في الإسلام، حتى أطلق على عهده (العهد الذهبي لآسيا الوسطى).

يقول المؤرخ بوريبوي أحmedov: «لقد اهتم الخلفاء بنشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر، فكانوا يلتجؤون إلى الطرق السلمية ومنها الإعفاء من دفع الخراج والجزية، وهي سياسة اتبعتها ولاة العرب في خراسان وما وراء النهر منذ عهد عمر بن عبد العزيز»^(٣).

لقد قام عمر بن عبد العزيز بإلغاء الجزية التي كانت مفروضة على سكان ما وراء النهر منذ زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، وبرد المال الذي أخذ من أصحابه، يورد الطبرى أن عمر بن عبد العزيز كلف موظفًا رد هذا المال إلى أصحابه، حيث قصد بلاد ما وراء النهر كلها قصبة قصبة^(٤).

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٣) بوريبوي أحmedov، العرب والإسلام في أوزبكستان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩، ص ٨٣.

(٤) الطبرى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٨٩.

على دولة الخلافة الأموية، وأثناء غزوته بلغه عزله عن خراسان بخالد ابن عبدالله القسري، الذي ضمت إليه بالإضافة إلى ولاية خراسان، كلّ من العراق والمشرق^(١).

وقد جعل خالد أخاه أسد بن عبدالله على خراسان من قبله^(٢) واستطاع هذا الأخير غزو بلاد الغرشستان، التي تقع بعد جبال الطالقان، فصالحه ملكها وأسلم على يديه^(٣) كما وغزا الغور في جبال هرة^(٤).

وقد عرفت خلافة هشام بن عبد الملك تغييرًا دائمًا للولاة الأمويين على خراسان وببلاد ما وراء النهر، وقد يعود ذلك إلى سوء إدارة هؤلاء الولاة، أو إلى عدم السماح لهؤلاء الولاة بالتوسيع في علاقاتهم وتوسيعة نفوذهم على حساب الدولة، أو إلى صراع القادة للوصول إلى ولاية خراسان وما وراء النهر لعظم قدرها ونسبة الأموال التي تجبي منها لغناها.

وهؤلاء الولاة هم:

- الحكم بن عوانة الكلبي، عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م، بعد أن عزل خالد

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٨.

(٤) هرة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٦.
- الطبرى، ج ٨، ص ١٤٨.

بلاد ما وراء النهر في عهد هشام بن عبد الملك

مع وصول هشام بن عبد الملك إلى الخلافة (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٤٣ - ٧٢٤ م)، «عين نصر بن سيار» واليًا على خراسان، وقد عرفت هذه الفترة من تاريخ بلاد ما وراء النهر ظهور أسماء لامعة لعبت دوراً علمياً بارزاً في التاريخ الإسلامي، من أمثل: البخاري، ومسلم، والترمذى، والنمسائى، والبىهقى من أئمة الحديث.

والطبرى المؤرخ الذى عاش فى بخارى، كما ظهر الخوارزمى المؤرخ والشاعر، وابن سينا الطبيب والفيلسوف، والغزالى صاحب كتاب إحياء علوم الدين، والزمخشري من أئمة التفسير^(١).

إن ظهور هؤلاء الرجال الذين لمعوا في مختلف العلوم المعروفة في ذلك الزمان، وفي بلاد ما وراء النهر تحديداً، إنما هو دليل على تعمق كبار رجال الفكر في حاضر ما وراء النهر بالدين الإسلامي، وتحولهم من متلقٍ للإسلام إلى مساهم أساسى وفعلي في تفسير الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنّة النبوية، ليس في مناطقهم وعند شعوبهم فحسب، بل ولسائر العالم الإسلامي وشعوبه حينذاك، وهذا وبالتالي تطور فكري سينقل العالم الإسلامي إلى عصر جديد، هو عصر النهضة الإسلامية، كما يمكننا أن نطلق عليه.

ومع العام ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م، عمد والي خراسان من قبل هشام بن عبد الملك، مسلم بن سعيد، إلى غزو بلاد الترك لاخضاع الخارجين

(١) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٥٠.

قد حصل الأموال الكثيرة من خلال ولايته حتى أن ولده يزيد كان من كبار الأغنياء، «كان خالد يقول لابنه يزيد: ما أنت بدون مسلمة بن هشام، فإنك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد: سكرتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحد، ولني سقاية مكة ولني ولاية العراق»^(١).

وقد ثبت الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ) -٧٤٣م) نصر بن سيار على خراسان واستمر عليها حتى سقوط الخلافة الأموية^(٢).

بلاد ما وراء النهر والخلافة العباسية

استمرت سياسة الدولة العباسية في علاقتها ببلاد ما وراء النهر على ما كانت عليه خلال فترة حكم الدولة الأموية، كما واجه العباسيون الأطماع الصينية الساعية إلى التدخل في بلاد ما وراء النهر والسيطرة على طرق التجارة التي تمر في أراضيها، فكانت الصين ملادةً للخارجين على الولاة العباسيين، كما كانت تتدخل في الصراعات التي تقوم بين حكام ما وراء النهر لكتسب ود بعض الأمراء إلى جانبها، ومن ذلك عندما وقع الخلاف بين إخشيد فرغانة وملك الشاش (عام ١٣٣هـ / ٧٥٠م) حيث استمد الإخشيد الدعم من الصين التي أمدته بمئة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش حتى اضطر إلى

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٩٧.

أخاه أسدًا، والسبب في ذلك كما يورد الطبرى «تعصب أسد وأفسد الناس بالعصبية»^(١).

- أشرس بن عبدالله السلمي، الذي تسلمها بعد الحكم في العام نفسه «وكان أشرس فاضلاً خيراً، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم فسار إلى خراسان فلما قدمها فرحوا بقدومه»^(٢).

- الجنيد بن عبد الرحمن، عام ١١١هـ / ٧٢٩م، ويورد الطبرى سبب توليه خراسان وعزل أشرس عنها: «وكان سبب استعماله إياه أنه أهدى لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم، امرأة هشام قلادة فيها جوهر، فأعجبت هشاماً، فأهدى لهشام قلادة أخرى، فاستعمله على خراسان»^(٣).

- عاصم بن عبدالله، عام ١١٥هـ / ٧٣٣م، بعد وفاة الجنيد^(٤).

- خالد بن عبدالله من جديد، بعد أن عزل عاصم عنها، فولى خالد أخيه أسد بن عبدالله مرة ثانية، عام ١١٧هـ / ٧٣٥م^(٥).

- نصر بن سيار، عام ١٢٠هـ / ٧٣٧م^(٦) وذلك بعد أن عزل عنها خالد بن عبدالله، وسبب ذلك كما يورد الطبرى هو أن خالداً كان

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ٨، ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٣.

(٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢١٩.

أعلى المراتب داخل الدولة، فكان الوزراء والقادة من الفرس، إلا أن العباسين أزالوهم عن السلطة، وكانت على سبيل المثال «نكبة البرامكة»، و«نكبة بنى سهل»، والتي أتت بعد تخوف الخلفاء العرب من قوة النفوذ الفارسي وطغيانه مما يهدد كرسي الخليفة العربي نفسه، فكان صراع بين عرب يسعون إلى استعادة نفوذهم داخل الدولة وفرس يسعون إلى إعادة أمجاد دولتهم^(١).

ومع قيام الثورات على الخلافة العباسية، وكان أبرزها ثورة «بابك الخرمي» في أذربيجان، التي دامت حوالي عشرين عاماً، وهو من الفرس المجروس^(٢) إلى أن قضى عليه المعتصم العباسى (٢١٨ - ٢٢٧ / هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م)^(٣).

أخذ المعتصم يسعى إلى الحصول على قوة جديدة غير فارسية تكون داعمة لحكمته وللخلافة العباسية يستقوى بها على العاصين والمخالفين، فلم يجد أفضل من الأتراك، الذين كانوا يفدون على بغداد ومناطق العراق من بلاد ما وراء النهر، فعمد المعتصم إلى شراء الرقيق التركي بكثرة من سمرقند وفرغانة وأشروسنة، إلى أن بلغ عددهم حوالي عشرين ألفاً^(٤).

(١) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٤) ابن تغري بردي، التجوم الراهنة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣، ج ٢، ص ٢٢٣.

الرضوخ لملك الصين، إلا أن أبو مسلم الخراساني وجه إلى حربهم زياد بن صالح، فأنزل بهم الهزيمة وقتل منهم وأسر، وفرَّ الباقي إلى الصين^(٥).

أما أول وإلٰ عباسي على خراسان وما وراء النهر، فهو أبو مسلم الخراساني (ت ١٣٧ هـ ٧٥٤ م)^(٦). وبعد مقتله تولاها عدد من الولاة العباسين حتى بداية العصر العباسى الثاني، ولكل عصر رجاله. فقد قسم المؤرخون تاريخ الدولة العباسية إلى ثلاثة عصور، يذكرها الشعابى (ت ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م) قائلاً: «إن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون والخاتمة المعتصم»^(٧).

كما يقسمها شوقي ضيف إلى: عصر النفوذ الفارسي، وعصر النفوذ التركى، ومن ثم عصر الانحطاط^(٨).

وقد شهد العصر العباسى الثاني تحولاً في مقاليد الحكم، من نفوذ فارسي طغى على العصر العباسى الأول، إلى نفوذ تركي في العصر العباسى الثاني^(٩).

فقد عرف العصر العباسى الأول عناصر فارسية وصلت إلى

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥١٤.

(٢) الطبرى، المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٤.

(٣) الشعابى، لطائف المعارف، نشردى يونغ (لدين ١٨٦٧)، ص ٧١.

(٤) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسى الثاني، القاهرة: دار المعارف، ط ١٢، ص ٥٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٠.

توسيع نفوذ أشناس التركي، فأصبح هو الأمر والناهي على أنحاء الدولة العباسية^(١).

ومع موت أشناس، تولى تركي آخر هو «إياتخ» كور دجلا وخراسان والسندي^(٢).

وتوسيع نفوذه ليحل مكان أشناس كأقوى شخصية عسكرية وسياسية داخل الدولة العباسية^(٣).

اتخذ النفوذ التركي أبعاداً أوسع مع عدم قيام الواثق باتخاذ ولبي للعهد من بعده، ما فسح في المجال أمام القادة الأتراك الأقوية: إياتخ ووصيف وبنغا الكبير، على حمل كبار الأسرة العباسية على مبايعة المตوكل (٢٣٢-٨٤٧هـ)، بعد موت الواثق عام ٨٤٧هـ^(٤).

وقد ساهم ذلك في رفع شأن القادة الأتراك الذين أصبحوا، إلى جانب نفوذهم العسكري والسياسي، هم من يولون الخليفة، ليتحولوا وبالتالي إلى الحكم الفعليين داخل الدولة، ينصبون، ويقيلون، ويقتلون الخليفة متى شاؤوا، ويعينون الولاة والموظفين والقادة^(٥).

(١) اليقobi، تاريخ اليقobi، بيروت: دار صادر، د.ت، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨١.

(٤) الطبرى، المصدر السابق، ج ١١، ص ١٤٥.

(٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، المرجع السابق، ص ١٢.

ونظراً إلى طباع الأتراك الغليظة وأسلوب تعاملهم الفظ مع السكان العرب، بنى لهم المعتصم مدينة سامراء حيث انتقل معهم إليها^(٦).

هذه النقلة النوعية، من عنصر فارسي مثقف متعلم ساعد على إيجاد نهضة داخل الدولة العباسية، إلى عنصر تركي بدوى، «لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، وإنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس»^(٧).

وهم من أصبحت بيدهم السلطة من إدارية وعسكرية وتولوا أنحاء واسعة من الدولة^(٨). مما ساعد على انحطاط الدولة العباسية، حتى أصبح الخلفاء من بعد المعتصم، مسخررين لهم، حيث طفت أسماؤهم على اسم الخليفة نفسه. ظهر على سبيل المثال القائد التركي «أشناس» الذي تولى مصر وكانت بيده تولية الولاة عليها، كما دعي له على منابرها^(٩).

ومع وصول الواثق العباسي (٢٢٧-٨٤٢هـ) إلى

(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٧) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسى الثانى، المرجع السابق، ص ١٠.

(٨) المرجع نفسه، ص ١١.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٦٣، ج ٢، ص ٢٣٢.

المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا خلעוه، وإن شاؤوا قتلوه»^(١).

ومع موت المنتصر (٨٦٢ هـ / ٢٤٨ م) بعد ستة أشهر من خلافته^(٢) اتفق القادة الأتراك: بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقب بالمستعين (٨٦٩-٨٦٢ هـ / ٢٤٨-٢٥٢ م)^(٣).

ومع محاولة المستعين الانتقال من سامراء نحو بغداد للتخلص من النفوذ التركي عدوا إلى خلعه، وعيّناً المعتر بالله ولـي عهد المـتوكل بعد المنتصر (٨٦٦-٨٥٥ هـ / ٢٥٢-٢٥٠ م)^(٤).

فظهر خليفتان، واحد في بغداد مخلوع، وآخر في سامراء معين، تدور الحرب بينهما ويضطر المستعين إلى ترك بغداد بعد أن حوصل فيها، ويقتل فيما بعد في «واسط»^(٥).

ومن جانبه حاول المعتر التخلص من الأتراك، عبر كسب ود الفراغنة والمغاربة عليهم، واستطاع أن يقتل وصيفاً وبُغا الشريابي الصغير، وفي ذلك يقول المسعودي: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتر

(١) ابن الطقطقي، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص ٢٣٢.

(٢) ينقل المسعودي أن الأتراك قتلوا بعد أن أدركوا غايتها من الفتاك بهم، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٣٦.

(٣) الطبرى، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٠٤.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٥-١٦٦.

وقد حاول الخلفاء العباسيون وضع حدًّا للنفوذ التركي المتنامي هذا عبر الإيقاع بين القادة الأتراك، كما جرى مع إيتاخ، حين عين المـتوكل «وصيفاً» التركي مكانه، بعد أن أرسـل إيتاخ إلى مـكة، ومع عودـة هذا الأخير تولـي وصيف الإيقاع به وسـجنـه ليـتوفـي في السـجن بـعـدهـاـ عامـ ٨٤٩ـ هـ / ٢٣٥ـ مـ^(٦).

ثم حاول المـتوكل مـرة ثـانية الإيقـاع بين وصـيف وبـغاـ الكبيرـ، وأرفـقـ ذلكـ بـنقلـ كـرسـيـ الخـلـافـةـ منـ سـامـراءـ نحوـ دـمـشـقـ عامـ ٨٥٧ـ هـ / ٢٤٣ـ مـ^(٧)ـ، ثمـ إـلـىـ «ـالـماـحـوزـةـ»ـ الـتـيـ تـقـعـ إـلـىـ الشـمـالـ مـنـ سـامـراءـ،ـ كـمـاـ شـكـلـ قـوـةـ مـنـ الجـنـدـ العـرـبـ لـحـمـاـيـتـهـ بـلـغـتـ اـثـنـيـ عـشـرـ أـلـفـاـ^(٨)ـ.

إـلـاـ أـنـ الـقـادـةـ الـأـتـرـاكـ اـنـتـهـيـواـ إـلـىـ نـيـاتـ المـتوـكـلـ فـاتـفـقـواـ مـعـ وـلـدـهـ وـلـيـ عـهـدـ الـمـنـتـصـرـ (٨٦١ـ هـ / ٢٤٧ـ مـ)،ـ عـلـىـ قـتـلـ المـتوـكـلـ،ـ وـهـوـ مـاـ جـدـرـ،ـ حـيـثـ قـتـلـوـهـ مـعـ وزـيرـهـ الفـتحـ بـنـ خـاقـانـ عـامـ ٨٦١ـ هـ / ٢٤٧ـ مـ^(٩)ـ.

يـصـورـ المؤـرـخـ ابنـ الطـقطـقـيـ الواقعـ الـذـيـ آلتـ إـلـيـهـ الخـلـافـةـ العـبـاسـيـةـ حـيـثـ يـقـولـهـ:ـ «ـاسـتـولـىـ الـأـتـرـاكـ مـنـذـ قـتـلـ المـتوـكـلـ عـلـىـ

(٦) الطبرى، المصدر السابق، ج ١١، ص ١٥٣.

(٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.

(٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٨.

(٩) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق سعيد اللحام، بيروت: دار الفكر، ط ٢٠٠٠، ج ٤، ص ١٢٤.

لقد تحول الموفق إلى الشخصية الأقوى في الدولة العباسية، حتى أن قادة الجندي، وبعد موت الموفق عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م، بايعوا ولده من بعده، حيث اجتمع القواد «... وبايعوا ابنه أبي العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد، ولقب بالمعتضد بالله، وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض... واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه يتولاه»^(١).

وهذا ما دفع الخليفة المعتمد تحت ضغط قادة الجيش إلى أن يخلع ولده المفوض ويجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق^(٢).

وبعد عام واحد توفي المعتمد، وتسلم المعتضد ابن الموفق الخلافة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م - ٢٨٩هـ / ٩٠٢م)، فخضع له قادة الترك واستطاع المعتضد القبض على كبير قادة الترك بكتمر بن طاشترم عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م، فسجنه وصادر أمواله وأملاكه^(٣).

واستمر الأتراك يخضعون من بعده لولده الخليفة المكتفي (٢٨٩هـ / ٩٠٨م - ٢٩٥هـ / ٩٢٣م)^(٤).

ومع موت هذا الأخير، وصل إلى الخلافة شقيقه المقتدر (٢٩٥هـ / ٩٢٠م - ٣٢٠هـ / ٩٠٨م)، وكان لا يزال في الثالثة عشرة من

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، الكامل ج ٤، ص ٥٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٦٤.

(٣) الطبرى، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢١٨.

(٤) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، عمان: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣، ج ٢، ص ٥٧.

على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في فنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم...»^(١).

ومع وقوف القادة الأتراك صفاً واحداً، طلبو من المعترض أن يخلع نفسه، ففعل، وبايعوا محمد بن الواثق ولقب بالمهتمي (٢٥٥هـ / ٨٧٠م)، ومن ثم قتلوا المعترض^(٢).

ومع محاولة الواثق التخلص من القادة الأتراك، قتلوا أيضاً عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م^(٣)، بعد مرور عام واحد على تسلمه الخلافة. ثم بايعوا المعتمد أحمد بن المتوكل (٢٧٩هـ / ٩٠٨م - ٢٥٦هـ / ٨٦٠م)^(٤).

إلا أن عوامل عددة ساهمت في تراجع النفوذ التركي مؤقتاً، مما ساهم في استعادة الخليفة لبعض نفوذه وفي ضعف الأتراك وانشغلتهم بما يحصل داخل قصر بغداد، ومن هذه العوامل «ثورة الزنج»، وبروز الموفق أخو المعتمد، وكان شخصية قوية، قاد الجيش في قتال «الزننج» وانتصر عليهم عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣م^(٥).

باتتصار الموفق عادت السلطة الفعلية إلى المعتمد وأخيه الموفق، وضعف شأن القادة الأتراك وكانوا حينئذ: «يارجوخ وكينعلخ وبكتمرين وطاشترم»^(٦).

(١) المسعودي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٦ - ١٨٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٣١.

(٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، المرجع السابق، ص ١٥.

الإخشيدية في مصر، «يشكو حاله ويستقدمه إليه»، لمساعدته على القائد التركي «توزون»، إلا أن هذا الأخير سرعان ما قبض عليه بعد أن علم عن طريق عيونه التي كانت تحيط بالمتقي بمحظوظ الخليفة^(١)، وولها من بعده المستكفي بالله بن المكتفي (٣٢٩/٥٣٣٤-٩٤٤)، الذي أعطى لقب إمرة الأمراء إلى معز الدولة البويمي (ت ٩٤٥م)، ليبدأ العصر البويمي، ويزول التفوذ التركي عن كاهل الدولة العباسية^(٢).

العصر العثماني الأخير

مع نهاية العصر العثماني الثاني ومع الضعف الذي أصاب الخلافة العثمانية، عمد بعض حكام الولايات إلى الاستقلال عن بغداد، فظهرت الدوليات على الشكل الآتي:

- بنو بويه في فارس والري وأصبهان والجل.
- السامانيون في خراسان.
- الديلم وضعوا أيديهم على طبرستان ومرجان.
- محمد بن إلياس، وقد تفرد في حكم كرمان.

أما بقية أنحاء الدولة العثمانية فقد توزعت بين بني حمدان والبريدي، والقرامطة، والإخشيد، والفاتميين، والأمويين في الأندلس^(٣).

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٠.

(٢) ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٣) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني الثاني، المرجع السابق، ص ٢٦.

عمره، فعمد داود بن الجراح، وهو أحد الفقهاء إلىأخذ البيعة لعبد الله بن المعتر وتقى ابن الجراح الوزارة، إلا أن القادة الأتراك سرعان ما ثاروا وعلى رأسهم «مؤنس»، فقتلوا الخليفة المعين ووزيره ابن الجراح، وأعيدت الخلافة إلى المقىدر^(٤).

بذلك يستعيد الأتراك التفوذ الذي كان لهم من قبل، فيعزل مؤنس المقىدر بعد خلاف معه، ويولي أخيه محمد القاهر بالله (٣٢٠/٥٣٢٢-٩٣٤) ومن ثم يقتل المقىدر^(٥).

إلا أن القاهر استطاع قتل مؤنس وبعض القادة الأتراك^(٦)، لكن عمله هذا لم ينفعه من غضب باقي الأتراك الذين سرعان ما خلعواه عام ٩٣٣م وسملوا عينيه^(٧).

ونصب الأتراك من بعده الراضي بالله أحمد بن المقىدر (٣٢٢/٩٣٤-٩٤٠) وفي عهده عادت السلطة إلى القادة الأتراك وكان للخليفة الاسم فقط^(٨).

ومع موت الراضي بالله، خلفه أخوه المتقي بالله (٣٢٩/٥٣٣٣-٣٢٩)، ولكن القادة الأتراك سرعان ما سملوا عينيه وقتلوه^(٩). وسبب ذلك، هو مكاتبه الإخشيد محمد بن طفح، حاكم الدولة

(١) الطبرى، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٠٢ و ١٠٦.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٢.

(٥) فاروق عمر فوزي، الخلافة العثمانية، المرجع السابق، ج ٢: ص ٦١-٦٢.

(٦) ابن الطقطقي، الفخرى، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

كما عرفت هذه البلاد عدداً من الثورات التي أنهكت الخليفة العباسية، ومنها:

١- ثورة المقنع أو هاشم بن حكيم، «كان رجلاً أعزراً، قصيراً، من أهل مرو، ويسمى حكيمًا، وكان اتخذ وجهه من ذهب فجعله على وجهه لثلا يرى، فسمى المقنع وادعى الألوهية.. وكان يقول: إن الله خلق آدم، فحوّل في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا هلّم جرّاً إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إلى هاشم وهاشم، في دعواه، هو المقنع، ويقول بالتناسخ...»^(١). واستطاع المقنع أن يبسط نفوذه على مناطق من بلاد ما وراء النهر، إلى أن قتل على يد جيش عباسي على رأسه معاذ بن مسلم عام ١٦١ هـ/٧٧٧ م^(٢).

٢- ثورة رافع بن الليث، حفيد نصر بن سيار، الذي قام على هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) في سمرقند عام ١٩٠ هـ/٨٠٥ م^(٣).

واستمر رافع في ثورته ولم يستطع العباسيون إخضاعه إلى أن قام الصراع بين الأمين والمأمون، حيث التجأ رافع إلى المأمون وانضم إليه، عام ١٩٤ هـ/٨٠٩ م^(٤).

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٣٧ - ٦٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠٠.

والجدير ذكره، أن بلاد ما وراء النهر كانت طوال الحكم العربي تخضع لخراسان وعاصمتها «مرو»، فكان الوالي عليها في مرو مندوباً من خليفة دمشق ومن ثم ببغداد^(١). وكان بعد المسافة بين هذه الولاية وعاصمة الخليفة، أن أطمع الولاة عليها بالاستقلال، وخصوصاً أن بلاد ما وراء النهر كانت معروفة بوجود المحاربين الأشداء الذين كانوا يسارعون إلى دعم المرتدین على الخليفة^(٢).

ولم تعرف ولاية خراسان وما وراء النهر ولاة أقوياء، كنصر بن سيار زمن الأمويين، وأبي مسلم الخراساني زمن العباسيين، حتى أن هذا الأخير اعتبر شخصية أسطورية رفعت من قدر الأتراك ودخل في تاريخ تلك البلاد وقيلت عنه القصص.

يقول فاليري حول العلاقة التي ربطت الأتراك ببلاد ما وراء النهر بأبي مسلم الخراساني أن انضواء أتراك ما وراء النهر وأتراك خوارزم في يسر تحت راية العباسيين السوداء، وتحمسهم كذلك لدعوتهم إنما يستثنى في إجلالهم البالغ لذكرى أبي مسلم الخراساني في أن يكسب إلى صفة وفي وقت قصير، أتراك بلاد ما وراء النهر، حتى أن هؤلاء نسجوا القصص عن أبي مسلم تقرنه بال الخليفة علي ابن أبي طالب^(٣).

(١) فامبرى، تاريخ بغداد، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨.

واستمروا في إرسال الضرائب إليها، وحتى بعد نهاية حكمهم لخراسان وما وراء النهر ظهر منهم قادة تولوا شرطة بغداد^(١)، لتسقط هذه الدولة على يد يعقوب بن الليث الصفار (ت ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م)^(٢)، الذي أقام الإمارة الصفارية إلى الشرق من إيران، ووصلت في حدودها إلى كرمان وأفغانستان والسندي^(٣).

الدولة الصفارية: (٢٥٣-٩١٠ هـ / ٢٩٨-٨٦٧ م)

تعود إلى يعقوب بن ليث الصفار (٢٥٣-٨٦٧ هـ / ٢٦٥-٨٧٨ م)^(٤)، وقد ظهرت في سجستان، وحكمت بلاد فارس واحداً وأربعين عاماً (٢٥٣-٨٧٦ هـ / ٩١٨-٢٩٦ م)^(٥)، ويعتقد أن يعقوب، مؤسس هذه الدولة، كان يعمل في صناعة النحاس، ونال الحظوة عند والي سجستان فقد جيشه^(٦)، كما خلف هذا الوالي على سجستان وأعلن نفسه سلطاناً، وتوسعت رقعة نفوذه ليضم كل فارس إلى ممتلكاته وأقاليم الهند القريبة منها، كما هدد بغداد^(٧).

إلى أن سقطت هذه الإمارة على يد الدولة السامانية^(٨).

تاتلي عليها بعد يعقوب بن الليث الصفار:

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥.

(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٢١٦-٢١٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٢٧-٣٩٨ - الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٤) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٥) فيليب حتى، تاريخ العرب، بيروت: دار غندور، ط ٥، ١٩٧٤، ص ٥٣٧.

ومع خلافة المؤمن العبسي (١٩٨-٨١٣ هـ / ٢١٨-٨٣٣ م)^(٩)، وجد في الأسرة السامانية ملاذه الوحيد لاستعادة الدولة نفوذها على بلاد ما وراء النهر، فدعم هذه الأسرة ومكّنها من أن تحكم في بلاد ما وراء نهر جيحون^(١٠).

بلاد ما وراء النهر والدول المستقلة

الدولة الطاهرية: (٢٠٧-٨٢٢ هـ / ٢٥٩-٩١٩ م)

مع دخول المؤمن العبسي بغداد في آب من العام (٩١٩ هـ / ٢٠٤ م)^(١)، وخروجه من خراسان، أعلن الخوارج الثورة فيها، فبعث المؤمن إليهم بقائده طاهر بن الحسين (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)^(٢)، الذي استطاع إنهاء ثورة الخوارج، واستقل بخراسان وما وراء النهر عام (٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)^(٣)، لظهور الدولة الطاهرية التي تاتلي عليها أبناء طاهر بن الحسين وأحفاده طوال قرن من الزمان^(٤).

واتخذ الطاهريون من نيسابور عاصمة لهم، وفي عهدهم ظهرت المدارس في بخارى وسمرقند، كما شجعوا الحركة العلمية، واعتمدوا اللغة العربية في الكتابة والأدب والشعر^(٥).

واستمرت صلة الدولة الطاهرية بالخلافة العباسية جيدة،

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق ص ٩١.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٣) الزبيدي، طبقات النحوين واللغويين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤، ص ١٠٤.

ال الخليفة المأمون العباسي فولاهم بلاد ما وراء النهر، وكان سامان جدهم على الديانة الزرادشتية، فارتدى عنها إلى الإسلام، على يد أسد بن عبدالله القسري والي خراسان في العهد الأموي فسمى ولده أسدًا تيمناً به. كما تولى أولاد أسد بن سامان نواحي من بلاد ما وراء النهر في عهد المأمون العباسي، فكان نوح بن أسد على سمرقند عام ٤٨١هـ / ١٠٢٤م، وأحمد بن أسد على فرغانة، ويحيى بن أسد على الشاش وأشروسنة، ومع وصول طاهر بن الحسين إلى خراسان وما وراء النهر أقرهم على ما في أيديهم^(١).

واشتهر من السامانيين إسماعيل بن أحمد بن أسد (ت ٢٩٥هـ / ٩٠٧م)، وأخوه نصر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، الذي تولى سمرقند بعد والده، وثبته الخليفة المعتمد العباسي على بلاد ما وراء النهر عام ٢٦١هـ / ٨٧٤م لظهور الدولة السامانية.

إلا أن خلافاً قام بين الأخرين: إسماعيل ونصر، ونجح إسماعيل في بسط نفوذه على أملاك أخيه ليتفرد في الحكم. وفي عهد هذا الأخير ظهرت الدولة السامانية التي أزالت الدولة الصفارية، واستقلت في حكم بلاد ما وراء النهر^(٢). يصف ابن الأثير إسماعيل الساماني مظهراً ميزاته «إنه كان خيراً يحب أهل العلم والدين، ويكرّمهم»^(٣).

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، بيروت: دار الجيل، ط ١٤، ١٩٩٦، ج ٣، ص ٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٨٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٥٨.

- عمر بن الليث الصفار (٢٦٥هـ - ٨٧٨هـ / ٩٠٠ - ٩٠٠م)^(٤).
 - طاهر بن محمد بن عمرو (٢٩٦هـ - ٢٨٧هـ / ٩٠٨ - ٩٠٠م)^(٥).
 - الليث بن علي بن الليث (٢٩٦هـ - ٢٩٧هـ / ٩٠٩ - ٩٠٨م).
 - المعدل بن علي بن الليث (٢٩٧هـ - ٢٩٨هـ / ٩١٠ - ٩٠٩م)^(٦).
- وبالرغم من اهتمام الإمارة الصفارية وحكامها بخوض الحروب وعدم وجود عاصمة لهم، فإن الأسرة الصفارية اهتمت بالنواحي العلمية أيضاً، ويرز من هذه الأسرة، يعقوب بن الليث الصفار الذي شجع العلم وأنفق عليه^(٧).

الدولة السامانية (٢٦٦هـ - ٨٧٤هـ / ٩٩٩ - ٢٨٩هـ / ٩٠٩م)

كانت بلاد ما وراء النهر بالنسبة للسامانيين كخراسان عند الطاهريين، وقد لعب السامانيون دور العمال لدى الطاهريين في بلاد ما وراء النهر، ومع انتهاء الدولة الطاهرية، ولّى الخليفة المعتمد السامانيين ما وراء النهر، لتصبح آسيا الوسطى في عهدهم مركزاً للإشعاع الفكري والروحي للبلاد المحيطة بها^(٨). وتعود الأسرة السامانية إلى أسرة فارسية وقد تقرب أبناؤها من

(١) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، القاهرة: الدار العالمية، ط ١، ١٩٨٦، ج ١، ص ٢٥٤.

(٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٥٧.

(٤) الزيدي، طبقات النحوين، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٦٢.

٩٩٨-١٠٣٠ م)، الفرصة مناسبة لـإسماعيل على نيسابور وبخارى ويزيل نفوذ السامانيين^(١).

وامتازت هذه الفترة بدخول الصوفية إلى بلاد ما وراء النهر، ليتحول رجالها إلى إحدى القوى المؤثرة في حياة تلك البلاد، وتعاظم دور الفقهاء في توجيهه أمر رجل السلطة، وتم التوفيق بين الفقهاء والصوفية^(٢).

الدولة الغزنوية (٣٥١-٩٦٢ هـ / ١١٨٦-٩٦٢ م)

تعود الأسرة الغزنوية إلى سبكتكين (٣٦٦-٩٧٦ هـ / ٩٩٧ م) وكان من غلمان أبي إسحق بن البتكن، صاحب غزنة من قبل السامانيين، ومع موت هذا الأخير استقل سبكتكين بغزنة وأخذ يتسع منها بانياً دولته^(٣).

بعد وفاة سبكتكين تسلم الإمارة ولده إسماعيل (٩٩٧ هـ / ٣٨٧ م)، إلا أن أخيه محموداً أبعده بعد قتال لـإسماعيل على الإمارة. وبوصول محمود الغزنوي (٩٩٧-٣٨٧ هـ / ١٠٣٠ م). بدأت الدولة الغزنوية فعلياً^(٤).

ينقل حسن إبراهيم حسن عن المؤرخ براون قوله: «إن قوة محمود الغزنوي التي لا تحد قد ظهرت فجأة، وإنه بدأ عهده بوضع

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج ٣، ص ٨٨.

(٢) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ١.

(٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤.

ومع وفاة إسماعيل، ثبت الخليفة المكتفي ولده أبو نصر أحمد ابن إسماعيل (١٣٠ هـ / ٩١٣ م)، على ما كان في يد والده. وفي عهد هذا الأخير سقطت الدولة الصفارية وسيطر السامانيون على سجستان^(١).

ثم تولى من بعده ولده أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني (١٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، وفي عهده وصل نفوذ الدولة السامانية إلى كرمان، وجرجان، وأبهر، وقزوين، وقم، وهمدان، ونهاوند^(٢). ومع تسلم نوح بن نصر الساماني (٣٣١-٣٤٣ هـ / ٩٤٢-٩٥٤ م)، استعاد بلاد الري والجبل من ركن الدولة ابن بويه الذي كان قد دخلها من قبل^(٣).

وتتالي من بعده عدد من أفراد العائلة السامانية وهم:

عبد الملك بن نوح عام (٩٥٤ هـ / ٣٤٣ م)، ثم أخيه منصور بن نوح عام (٩٥٠ هـ / ٣٥٠ م)، ونوح الثاني بن منصور (٩٧٦ هـ / ٣٦٦ م)، وفي عهد هذا الأخير زالت الدولة السامانية بعد ثورة قامت في وجههم من قبل بعض الأمراء عام (٩٩٣ هـ / ٣٨٣ م)^(٤). مع ضعف السامانيين وجد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١ هـ) م

(١) الترشخي، تاريخ بخاري، المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج ٣، ص ٨٤.

(٤) الترشخي، تاريخ بخاري، المصدر السابق، ص ١٣٩ و ١٤٠.

-٧ قام بعدة حملات جهادية بين عامي (٣٩٢ و٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م)، بغية نشر الإسلام في بلاد الهند، من بلاد ما وراء النهر التي استولى عليها بعد سقوط الدولة السامانية ولقب بالغازي^(١).
 -٨ حقق نصراً حاسماً عام (٤٣٩ هـ / ١٠٠٣ م)، على جيوش أمراء الهند^(٢).
 ومن أبرز إنجازات محمود الغزنوي أنه حكم جزءاً من بلاد الهند، وفي ذلك يقول ستانلي بول: «إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد»^(٣).

مع وفاة محمود الغزنوي انتقلت السلطة من بعده إلى ولده محمد الذي لقب بجلال الدولة، إلا أن أخيه مسعود بن محمود^(٤)، سيطر على السلطة ولقب بالناصر لدين الله (٤٢٢-٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ م).
 -١٠٤٠

وتولى من بعده ولده مودود بن مسعود (٤٣٢-٤٤١ هـ / ١٠٤١ م)، وفي عهده تعرضت الدولة الغزنوية إلى هجمات السلجوقة عام (٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م)، بقيادة ألب أرسلان، وانتصروا عليهم^(٥).
 لقد كان على مودود مواجهة ملوك الهند، والأتراك الغز، والسلجوقة في الوقت نفسه، إلا أنه مات، ليتولى من بعده ولده

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٧٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٠١.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٥) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢.

يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند الثاني عشرة مرة، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب، وأنضم بلاد الغور، وببلاد ما وراء النهر، ووالى لبني بويه ضرباته التي انتهت باستيلائه على أصفهان^(١).

ومع ضعف الأسرة السامانية، هاجمهم وهزم جيش السامانيين في مرو عام (٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م)، ودخل خراسان، ليتخذ من نيسبور عاصمة له وخطب لل الخليفة القادر العباسي^(٢).

ومن أبرز إنجازاته:

- ١- ضم سجستان عام (٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م).
- ٢- عمد إلى إزالة نفوذ البوهيين في الري وببلاد الجبل، وقرزين.
- ٣- أعدم العديد من الباطنية (الإسماعيلية).
- ٤- أصدر أمراً بنفي دعاة المعتزلة إلى خراسان، وأمر أيضاً بإحراء كتب الفلسفة والمعتزلة^(٣).
- ٥- شن حرباً على الأتراك الغز في صحاري بخارى^(٤).
- ٦- عام (٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) لاحق المعتزلة، والشيعة، والإسماعيلية، والقرامطة، والجهمية، والمشبهة، فصلب قسمًا منهم ونفى القسم الآخر^(٥).

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٣٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٦٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٦.

أو الدولة الصفارية، فقد كانت تستند إلى السيف حتى إذا وهنت اليد التي كانت تحمل السيف ضعفت الدولة وتقوض كيانها^(١).

الدولة الإليةكية (٣٨٣-٩٩٣ هـ / ١١٠٢-٩٩٦ م)

لا يعرف تاريخ محدد لقيام هذه الدولة، إلا أن ملكها عبد الكريم أعلن إسلامه وتسمى بعد الملك واتبعبني سامان، وكان حاكماً على مناطق في تركستان وعاصمتها كاشغر. ومع ضعف الدولة السامانية، كان على الدولة الإليةكية شهاب الدولة هارون بن سليمان، الملقب بقراخان، الذي عمد إلى السيطرة على أملاكبني سامان ودخل بخارى وضمها إلى إمارته فترة من الزمن^(٢).

مع موت قراخان، تولى أخيه إيليك خان (٣٨٣-٩٩٣ هـ / ١٠١٢ م)، الذي يعتبر الأقوى في تاريخ هذه الدولة، وقد استطاع دخول بخارى عام (٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م)، وإنهاء حكم الدولة السامانية تماماً، وسيطر على بلاد ما وراء النهر^(٣).

تولى من بعد إيليك خان عدة أبناء من الأسرة الإليةكية، أبرزهم:

- طغان خان (٤٠٣-٤٠٨ هـ / ١٠١٢-١٠١٧ م)^(٤).
- أرسلان خان وقدرخان (٤٠٨-٤٢٣ هـ / ١٠١٧-١٠٣١ م)^(٥).

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤١.

(٢) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧.

(٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٩.

(٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٠.

عبد الرشيد فروخ زاد (٤٤١-٤٥١ هـ / ١٠٤٩-١٠٥٢ م) مدة خمسة أيام، ليبدأ الصراع على الكرسي بين أفراد الأسرة الغزنوية فيصل من بعده عمّه أبو الحسن علي بن مسعود الأول.

إلا أن عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي دعا إلى نفسه، فأطاعه الجندي، وتلقب بـ«عز الدولة»^(٦).

قام عبد الرشيد بعد وصوله إلى الإمارة بطرد السلاجقة من خراسان، إلا أن طغرل بك السلاجقي قتل عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م، وتزوج ابنة مسعود الأول واستولى على الدولة الغزنوية^(٧).

إلا أن قادة عبد الرشيد ثاروا وقتلوا طغرل وأعادوا السلطة إلى فروخ شاه من جديد^(٨).

ومع وفاة هذا الأخير تولى مكانه أخيه إبراهيم بن مسعود (٤٥١-٤٩٢ هـ / ١٠٩٨-١٠٥٩ م) ومن بعده ولده مسعود بن إبراهيم (٤٩٢-٥٠٨ هـ / ١٠٩٨-١١١٤ م)^(٩).

والجدير ذكره، أن هذه الدولة التي امتد نفوذها من لاهور في الهند إلى سمرقند وأصفهان، مثلت انتصاراً للعنصر التركي، وفي ذلك يقول فيليب حتى: «وقد كان ظهور الغزنوية أول نصر للعنصر التركي على العنصر الإيراني في ميدان الزعامة في العالم الإسلامي، ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لم تختلف كثيراً عن الدولة السامانية

(٦) الصرف، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٤-١٥.

(٧) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١٠٨.

(٨) المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٠٨.

(٩) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦.

العباسية، ليمتد نفوذهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض المتوسط^(١). يقول بروكلمان: «... أظهر البوهيميون عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الإمبراطورية، فلم يلبث الفرس، هنا أيضاً، أن طردوا على يد الأتراك، ذلك أن عشيرة جديدة نجمت بين الدولة الإيليك - خانية بتركستان وسلطان غزنة، ثم تعاظمت قوتها حتى لقد انتهت إلى السيطرة على الشرق الأدنى بкамله»^(٢).

ويعود السلاجقة إلى قبائل الغز، الذين عرفوا بالتركمان بعد دخولهم في الإسلام، واستطاعوا عبر حملات وغزوات متتالية من الوصول إلى أذربيجان وال العراق، وتمكن حفييد سلجوق طغرل باك وشقيقه جعري بك داود، من السيطرة على خراسان، ومن ثم على خوارزم وطبرستان، ثم تقدما باتجاه عراق العجم وأنهوا الدولة البوهيمية في فارس، وأثناء تقدمهم باتجاه العراق اتخذوا من الريّ عاصمة لهم، ومن بعدها أصفهان^(٣).

في الواقع، فإن الخلافة العباسية في تلك المرحلة، كانت ضعيفة جداً، ودولتها ممزقة بين الأمويين في الأندلس، والفاطميين في مصر وشمال أفريقيا، والزعماء العرب في شمالي سوريا والعراق، والدوليات في فارس وما وراء النهر، وتفاقم الخلاف بين السنة الشيعة^(٤).

(١) أرمينوس فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٢٧-١٢٩.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٣) بروكلمان، المرجع نفسه، ص ٢٧٢.

(٤) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤٩-٥٥٠.

- بقراخان بن قدرخان (٤٢٣-٤٣٩ هـ / ١٠٣١-١٠٤٧ م).
 - طغرل خان بن قدرخان (٤٣٩-٤٥٥ هـ / ١٠٦٣-١٠٤٧ م)^(١).
 - طغرل تكين بن طغرل خان (٤٥٥-٤٩٦ هـ / ١٠٦٣-١٠٢١ م)^(٢).
- وفي عهد هذا الأخير، هاجم السلاجقة وعلى رأسهم سنجر السلاجقى أملاكهم واستولى على تركستان ليضمها إلى دولته، ومع موت طغرل تكين انتهت الدولة الإيليكية^(٣).

الدولة السلاجقية

مع ازدياد النفوذ التركي داخل الدولة العباسية، سعى بعض الأتراك إلى الاستقلال ضمن الولايات، فعرفت الدولة العباسية ظهور الدوليات التي دامت ما بين الأعوام ٢٥٤-٨٦٨ هـ / ١١٨٦-١١٨٦ م).

ومن بين هذه الدوليات، الدولة السلاجقية، وهي تعود إلى سلجوق بن يكاك، وهو أمير تركي كان يخدم بعض أمراء تركستان (بلاد ما وراء النهر) ومنهم السامانيون.

أعلن سلجوقي إسلامه ولحق بهسائر أبناء قبيلته، وسار من تركستان (بلاد ما وراء النهر) مع ما معه من جند وأتباع باتجاه بغداد، وقطعوا نهر جيحون وبدأوا بالتتوسيع غرباً حتى دخلوا العاصمة

(١) الصرفي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ويصافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهب»^(١).

ومع موت ملكشاه قامت الحروب بين أبنائه ما أدى إلى إنتهاء ملوكهم، وكان نظام الإقطاعيات الوراثي قد خلف دويلات متصارعة، سارعت في سقوطهم^(٢).

ينقل فيليب حتى عن فترة حكم السلاجقة أنها «الناحية الوحيدة التي ترك فيها السلاجقة والترك العثمانيون في حياة الإسلام الدينية تتحصر في الصوفية، كما تزدهر في طرق الدراوיש المزدهرة في بلاد الترك»^(٣).

يعتبر عصر ملكشاه من أبرز العصور التاريخية في الإسلام، من ناحية انتعاش الحضارة «ويدين العلم والشعر والصناعة والعمارة بازدهارها جمِيعاً في إيران، إلى هذا الأمير العظيم، أكثر مما تدين إلى أي واحد من خلفائه»^(٤).

وبقي وفاة ملكشاه قسم الدولة على أبنائه وأقاربه، فكانت خراسان وببلاد ما وراء النهر لولده سنجر^(٥).

(١) ابن خلkan، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٧، ج٥، ص٢٨٥.

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص٥٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٥٥.

(٤) فامبرى، تاريخ بخارى، ص١٣٨.

(٥) المرجع نفسه، ص١٣٩.

ومع تقدم السلاجقة ووصول طغرل بك (٤٢٨/٥٤٥٥-١٠٣٦) إلى الغرب من بغداد ودخلوها عام (٤٤٧/٥٠٥٥) ليتهي عهد بنى بويه، ويبدأ عهد سلاطين بنى سلجوق، واستقبل الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٣/٦٤٦٨-١٠٣١) طغرل، «ولاه جميع ما ولاه الله من بلاده وخاطبه بملك المشرق والمغرب»^(١).

يقول فيليب حتى: «وكان عهد طغرل بك، وابن خيه ألب إرسلان من بعده، وملكشاه بن ألب أرسلان من بعدهما، من ألمع الحقب في تاريخ السيادة السلجوقية على الشرق الإسلامي، وقد عظم جيشه بما انضم إليه من قبائل الترك النشطة، فوسّع السلاجقة ملوكهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مرة ثانية مملكة إسلامية موحدة، وأخذ جيش الإسلام يسترجع ماضي مجده»^(٢).

مع وصول ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥/٥٤٨٥-١٠٧٢)، توسيع مملكة السلاجقة من كاشغر شرقاً إلى القدس غرباً، ومن القدسية إلى بلاد الخزر، وتميز عهده بالتقدم العمراني والحضاري^(٣)، وفي ذلك ينقل ابن خلkan، عن عهد ملكشاه قائلاً: «إن السبل في أيامه كانت ساكنة والمخاوف آمنة تسير القوافل مما

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص٥٥٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٥٣.

في طاعته، وكانت هذه أول وأخر حرب لسنجر في بلاد ما وراء النهر^(١).

حيث إن سمرقند عادت فثارت من جديد عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م، واضطررت سنجر والسلجقة إلى الانكفاء عن بلاد ما وراء النهر بالكامل^(٢).

أما الأويغور حكام ما وراء النهر في ذلك الوقت، فكان يحكمهم أمير يدعى كورخان^(٣) انطلق من الصين الشمالية، (عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م) وتقدم مسيطراً حتى فرغانة وببلاد ما وراء النهر، فواجهه السلطان سنجر الذي هُزم وابتعد عن تلك البلاد، ليتهي نفوذ السلجقة في بلاد ما وراء النهر نهائياً^(٤).

ومع انتهاء حكم أول أسرة تركية في بلاد ما وراء النهر، تعامل السلجقة مع تلك البلاد بلا مبالاة فيما بعد^(٥).

ومع وفاة السلطان سنجر (ت ٥٥٤هـ / ١١٥٧م) ضعف أمر السلجقة في خراسان، واستفرد الخوارزميون في حكمها^(٦).

(١) فامبيري، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، دمشق: دار إعلام، ط ١، ١٩٨٥، ج ١، ص ٨٦.

(٤) فامبيري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٦) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، بيروت: دار النهضة، د. ت، ص ٢٨.

وعن هذا الأخير يقول فامبيري: «إن السلطان سنجر (ت ٥٥٢هـ / ١٠٦٠م)، كان آخر سلاطين السلجقة الذي اهتم بأحوال بلاد ما وراء النهر، وأن هؤلاء السلاطين الأتراك عجزوا عن أن يحتفظوا بكيان دولتهم في «وطنهم القديم فيما وراء جيحون، وهم الذين بلغوا إلى تمكين نفوذهم في كل أنحاء الشرق الإسلامي»^(١). فنفوذ السلجقة في بلاد ما وراء النهر أخذ يتراجع مع دخولهم إلى إيران والمشرق العربي، وبقي للسلجقة السلطان الاسمي في بخارى وسمرقند وفرغانة، وكانت السلطة الفعلية في تلك النواحي بأيدي أمراء محليين من الأويغور ومن حكم تركستان الشرقية^(٢) وكانت المحاولة الوحيدة لبسط النفوذ على بلاد ما وراء النهر، من قبل ألب أرسلان، الذي صاهر سليمان، خان سمرقند، في محاولة لضم تلك البلاد سلماً، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، وينقل أن ألب أرسلان قام بحملة على ما وراء النهر انتهت بموته، وأن ملكشاه استطاع أن يمد نفوذه حتى فرغانة، إلا أنه يذكر أن حاكم تركستان في عهده كان خضر خان، وكان يضاهيه قوة^(٣).

وبالتالي فإن بخارى والجزء الغربي مما وراء النهر اعترفا بالسلجقة إلا أن القسم الشرقي من وراء النهر لم يعترف بهم، فعمد السلطان سنجر إلى حرب سمرقند عام (٥٢٤هـ / ١١٢٩م) فدخلت

(١) فامبيري، المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤١.

١١٩٧ هـ / ٥٩٤ مـ^(١) وهو أول تقدم باتجاه بلاد ما وراء النهر من قبل الخوارزميين.

الدولة الخوارزمية: ١٢٣١ هـ - ١١٣٨ مـ

مع نهاية السلاجقة، عرفت بلاد ما وراء النهر صراعاً بين قوى جديدة سعت إلى بسط نفوذها وسيطرتها على تلك البلاد، وبالتحديد بين كورخان الحاكم الأويغوري من جهة، والخوارزميين من جهة أخرى^(٢).

والخوارزميون يعودون إلى خوارزم، التي أقطعها ملكشاه السلجوقي لأحد قادته ويدعى أنو شتكين، وقد خلف هذا الأخير من بعده ولده قطب الدين عام ٥٤٩١ هـ / ١٠٩٧ مـ.

واشتهر هذا الأخير بالعلم والأدب، فعمد الأمير السلجوقي «حبشي»، إلى توليته على خوارزم وأطلق عليه لقب خوارزمشاه^(٣). انقلب خوارزمشاه على السلطان سنجر السلجوقي (٤٧٩-٤٥٢ هـ / ١٠٨٦-١١٥٧ مـ)، وتحالف ولده من بعده، إتسز بن محمد ابن أنو شتكين (٥٣٣-٥٥١ هـ / ١١٣٨-١١٥٦ مـ) مع دولة الخطأ (القراطشيين)^(٤)، التي تقع إلى الغرب من إقليم تركستان، وأنزلوا

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٣١.

(٢) فامبرى، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣) الصرفى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٤) قبائل الخطأ: كانت تسكن في شمال الصين، نزحت عنها في النصف الأول من القرن ٦ هـ إلى غرب إقليم تركستان، حيث كونوا دولة عرفت باسم القراطشيين، =

ومع صول إيل أرسلان على رأس الدولة الخوارزمية، شن أول حرب من نوعها على الخطأ أصحاب بلاد ما وراء النهر، الذين عبروا نهر جيحون باتجاه خوارزم، وكانت أول هزيمة للخوارزميين أمام الخطأ، الذين لم يكملوا هجومهم وتراجعوا إلى ما وراء نهر جيحون^(١).

وفي عهد السلطان الخوارزمي شاه محمود بن إيل أرسلان (٥٦٨-٥٦٨ هـ / ١١٧٢-١١٧٢ مـ)، ثار عليه أخوه علاء الدين تكش (٥٩٦-٥٩٦ هـ / ١١٧٢-١١٩٩ مـ)، وقد اعتمد هذا الأخير على دعم الخطأ، وهاجموا خوارزم ليتملكها علاء الدين الذي أجرى اتفاقاً معهم يضمن فيه عدم اعتداء أي طرف على الآخر^(٢).

والجدير ذكره أن عهد علاء الدين تكش، شهد توسيعاً نحو الغرب، كما عمد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٥٧٥ هـ / ١١٨٠-١١٨٠ مـ) إلى توليه على ما كان في يد السلاجقة من أملاك^(٣) ليتمكن الخوارزميون أخيراً من الانتصار على السلاجقة وقتل طغرل بك الثالث بالقرب من الري عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ مـ^(٤).

أما العلاقة مع الخطأ، فقد عرفت بعض التوترات فيما بعد، حيث حارب علاء الدين الخطأ واستولى على مدينة بخارى عام

(١) الصرفى، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٣) حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٤١١.

فمع تسلم السلطان شاه محمود بن إيل أرسلان (٥٦٨-٥٦٨ هـ / ١١٧٢-١١٧٢ م)، ثار عليه أخيه علاء الدين تكش (٥٩٦-٥٦٨ هـ / ١١٩٩-١١٧٢ م)، واستنجد هذا الأخير بالخطا، الذين هاجموا خوارزم ليتملكها علاء الدين من أخيه شاه محمود بالقوة^(١).

والجدير ذكره أن عهد علاء الدين، شهد توسيعاً نحو الغرب، بدلاً من الشرق، وهذا بطبيعة الحال نتيجة لموقف الخطأ ودعمهم له. واستطاع علاء الدين أن يستحصل من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢ هـ / ١١٨٠-١١٨٠ م)، على توليته على ما كان في يد السلاجقة من أملاك^(٢)، مقابل أن يتخلص من السلاجقة وسلطانهم طغرل بك الثالث.

وهو ما جرى حيث تمكّن الخوارزميون من هزم السلاجقة وقتل طغرل بك الثالث بالقرب من الري عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م^(٣). أما على مستوى العلاقة مع الخطأ، فقد ظل علاء الدين تكش، خاضعاً للخطا طوال عهده، لأنّه كان يدين بالسلطنة لهم، بالرغم من أنه حاول «التخلص من هذه التبعية أكثر من مرة»^(٤).

فنلاحظ أنه استطاع أن يستولي على مدينة بخارى عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م، من يد الخطأ^(٥) وهو أول تقدّم باتجاه بلاد ما وراء

(١) الصرفي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٢) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٤١١.

(٤) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٣١.

الهزيمة بالسلطان سنجر عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م، واستولوا على بلاد ما وراء النهر فترة من الزمن^(٦).

إلا أن إتسز أعاد الولاء للسلاجقة خوفاً من بطشهم، واستمر على ولائهم إلى حين وفاته^(٧).

بعد إتسز، تسلّم ولده إيل أرسلان (٥٥١-٥٦٨ هـ / ١١٥٦-١١٧٢ م).

وفي عهد هذا الأخير توفي السلطان سنجر (٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م) وبوفاته ضعف أمر السلاجقة في خراسان، فاستفرد الخوارزميون بحكمها^(٨).

عرف عهد إيل أرسلان أول حرب من نوعها مع الخطأ أصحاب بلاد ما وراء النهر، الذين عبروا نهر جيحون باتجاه خوارزم، فكانت أول هزيمة للخوارزميين على أيديهم، ولم يكمل الخطأ تقدمهم بل تراجعوا إلى ما وراء نهر جيحون، بعد أن سلبوا ونهبوا^(٩).

إن وجود الخطأ، البوذيين على الحدود الشرقية للخوارزميين، وغاراتهم لم تدفع هؤلاء إلى التكافف على مواجهة أخطارهم، بل نجد أن بعض الخوارزميين كانوا يستنجدون بالخطا من أجل السلطة،

= كان ملوكها يلقبون بلقب كورخان (ملك الملوك) ويدينون بالبوذية، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، بيروت، دار النهضة، د.ت، ص ٦٥.

(٦) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٩) الصرفي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٢.

المغول بقيادة جنكيز خان عام ١٢١٩ هـ / ٦٦٧ م^(١)، حيث اجتاحتوا بلاد ما وراء النهر وأملاك الخوارزميين، ليتهي ذلك بفරار علاء الدين محمد من أمام المغول ولি�توفى في العام نفسه^(٢).

بعد علاء الدين، تسلم ولده جلال الدين بن محمد (٦٦٧ - ١٢٢٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢٣٠ م)، الذي أعاد الدولة الخوارزمية إلى عزها الذي كانت عليه قبل الغارات المغولية، إلا أنه عاد ففر من أمام جحافل المغول من جديد، وقتل على يد بعض قبائل الأكراد^(٣) لتنفرض من بعده الدولة الخوارزمية.

وفي نهاية جلال الدين يورد ابن الأثير: «وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسعة لم نقف له على حال، والله المستعان»^(٤).

القراخطائيون في بلاد ما وراء النهر (٥٣٦ - ١١٤١ هـ / ١٢٠٩ م)

كان الموطن الأصلي لقبائل الخطأ في شمال الصين، إلا أنهم نزحوا عنها بسبب الحروب الداخلية، ونزلوا في تركستان الغربية حيث أقاموا دولة في كاشغر وختن، عرفت باسم القراخطائيين.

(١) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١١.

(٣) ابن تغري بردي، التلجمون الازاهرة، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت، ج ٦، ص ٢٧٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٦٣.

النهر من قبل الخوارزميين، إلا أن ذلك بقي مجرد مناورات كانت تنتهي بالاتفاق السريع.

ومع وصول ولده علاء الدين محمد بن تكش (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ - ١١٩٩ م) عرفت الدولة الخوارزمية توسيعاً، فهو تخلص من خطر الدولة الغورية عن بلاده واقتطع منها بلخ وهراء عام ١٢٠٥ هـ / ١٢٠٥ م^(١)، ثم تحول نحو الخطأ، فعبر نهر جيحون عام ١٢٠٧ هـ / ١٢٠٧ م، وذلك بعد أن وصل إليه كتاب من سلطان سمرقند

وبخارى فيه: «إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطيك من سلطة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وببلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأمول والأبشر، ونحن نتفق معك على محاربة الخطأ ونحمل إليك ما نحمله إليهم ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة»، كما بعث سلطان سمرقند وبخارى إلى علاء الدين محمد وجوه أهل بخارى وسمرقند^(٢)، عندها توجه معهم عبر نهر جيحون وحارب الخطأ وأنزل بهم الهزيمة عام ٦١٧ هـ / ١٢٠٩ م، وسيطر على بلاد ما وراء النهر^(٣).

هذا التوسيع الكبير للدولة الخوارزمية الذي وصل إلى كرمان ومكران والسندي وباميان وغزنة، توقف كله وسقط أمام جحافل

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٨٧.

(٢) الصرفي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٣) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٣٤.

بلاد ما وراء النهر والمغول

المغول بشكل عام، عبارة عن مجموعة من القبائل التي كانت تنتقل في بيئه صعبة بحثاً عن الماء والكلأ شمال صحراء (غويي) في الصين، وكانوا يعملون في الصيد وتربية الماشية^(١). وكانوا يعيشون في ضيق شديد، بعيداً عن أي تحضر إنساني، إلى أن جاء جنكيز خان (٥٩٩ - ١٢٣٤ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٠٣ م) فاهتم بأمرهم وحسن من أحوالهم، ثم عمل على توحيدهم تحت إمرته^(٢). وبعد توحيد القبائل المغولية عام ١٢٠٣ هـ / ٦٠٠ م، واجه جنكيز خان أسرة كين الصينية وأنزل بها الهزيمة عام ١٢١٥ هـ / ٦١٢ م^(٣) ثم توسع من بعدها باتجاه مناطق القراطائين وسيطر على أملاكهم عام ١٢١٢ هـ / ٦٠٩ م، لظهور عندها دولة جديدة على حدود العالم الإسلامي والدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر^(٤).

وقد بدأ الخلاف بين الدولتين، نتيجة التعرض لقافلة مغولية في مدينة أترار غربي نهر سيحون، من قبل ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين محمد^(٥).

(١) ستانلي بول، طبقات سلاطين الإسلام، القاهرة: الدار العالمية، ١٩٨٦، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) السيد الباز العربي، المغول، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) الهمذاني، جامع التاریخ، تاریخ خلفاء جنکیزخان، ترجمة فؤاد الصیاد، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣، ص ٥٣.

(٤) فؤاد الصیاد، المغول في التاریخ، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٥) ابن خلدون، تاریخ ابن خلدون، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨، ج ٥، ص ٢٣٧.

وتوسعت مملكة الخطأ لتمتد من حدود صحراء غويي في الصين إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا. وقد تلقب ملوكها بلقب «كورخان» أي ملك الملوك^(٦).

توسعت مملكة الخطأ باتجاه بلاد ما وراء النهر بعد أن أنزلوا الهزيمة بالسلطان السلاجوقى سنجر في موقع قطوان بالقرب من سمرقند عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م، لستقر دولتهم في بلاد ما وراء النهر مدة ٩٩ عاماً، بعد أن أخضعوا دولة الإيليك - خانية^(٧).

كما فرضوا على السلطان أنسز خوارزمشاه الجزية، ومع وصول علاء الدين محمد خوارزمشاه على رأس الدولة الخوارزمية، وبعد حض صاحب سمرقند على إخضاع القراطائين البوذيين عمد هذا الأخير إلى القضاء على دولتهم عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م^(٨).

والجدير ذكره أن الخطأ اتبعوا في بلاد ما وراء النهر سياسة كسبوا خلالها ود السكان المحليين المسلمين، حيث قربوا إليهم كبار رجال الدين واستعنوا بهم على الحكم، ومن هؤلاء أحمد بن عبد العزيز إمام مدينة بخارى، حيث عينه الخطأ إماماً وحاكمًا سياسياً على المدينة، فاستطاعوا عبره حكم البلاد^(٩).

(٦) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاریخ، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٧) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٤٧٦.

(٨) فؤاد الصياد، المغول في التاریخ، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٩) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٦٥.

العديد من المواجهات العسكرية بين مختلف القوى بغية السيطرة عليه. وبالتالي السيطرة على الطريق التجاري الذي كان يصل الصين بغرب آسيا، وأيضاً لضم تلك المناطق التي كانت غنية بالمقاتلين الأشداء الذين استُخدمو في الجيوش.

وقد ظهرتنا أيضاً أن تلك المنطقة كانت البداية التي عبرها تدفقت الجيوش المغولية لتدمير المشرق العربي وتنهي وجود الخلافة العباسية بشكل نهائي.

ومع وصول الأخبار إلى جنكىخان، طلب من السلطان علاء الدين محمد تسليم ينال خان لينال جزاءه، إلا أن علاء الدين رفض وقتل أحد سفراء جنكىخان عام ١٢١٥هـ / ٦١٥م، لتقع الحرب بينهما (١).

وتقدم جنكىخان باتجاه بلاد ما وراء النهر، ودخلها ولاقى الخوارزميين، فسيطر على بخارى^(٢) وسمرقند^(٣) واستمرت القوات المغولية بالتقدم حتى نهر جيحون، ثم قطعوه ملاحقين السلطان الخوارزمي^(٤).

إلا أن جنكىخان سرعان ما تراجع بجيشه بعد أن جعل من ولده الثاني جغتاي حاكماً على إقليم ما وراء النهر، وأضاف إليه كاشغر، وبلخ، وغزنة^(٥).

فظهرت «خانية جغتاي»، التي ضمت كل مناطق الأويغور، واستمر حكم جغتاي وأبنائه وأحفاده من بعده على بلاد ما وراء النهر إلى أن ظهر تيمورلنك وسيطر على تلك البلاد. وهكذا لاحظنا أهمية بلاد ما وراء النهر، كموقع جغرافي وسطي ربط بين بلاد الصين وخرasan والعالم الإسلامي. هذا الموقع شهد

(١) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمعنون، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٣٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٧٠.

(٥) فؤاد الصياد، المعنون في التاريخ، المرجع السابق، ص ١٦٥.

الفصل الثالث

الطرق الصوفية
في بلاد ما وراء النهر

يعتقد أن بدايات التصوف في الإسلام ظهرت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وذلك بشكل نزاع بين الرزد ومتاع الحياة الدنيا.

والتصوف هو، عند بعض الباحثين، العمل من قبل المذنبين على محو الخطايا عن طريق الإعراض عن متاع الحياة بغية محو الذنوب، وهو أيضاً الخوف من الآخرة ومن عذاباتها، مما دفع البعض إلى طلب التوبة والمغفرة عبر الإعراض عن متاع الحياة^(١).

وقد ورد أكثر من تعريف لكلمة «التصوف» وهي تظهر تطور فكرة التصوف ما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة، وأبرزها:
١- الارتباط بين الكلمة صوفي واللباس الصوفي الذي كان يرتديه أصحابه^(٢).

(١) عبد الكرييم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ٢١، ١٩٩٩، ص ٢١.

(٢) إحسان ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، تركيا: إدارة ترجمان السنة، ط ١٩٨٦، ص ٢١.

كما عرَّفَ كلمة «التصوف» عدة رجال ممن عرفوا بحياة التصوف وذلك على الشكل الآتي:

- ١ - معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م): «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق»^(١).
- ٢ - بشر الحافي (ت ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م): «الصوفي من صفا قلبه لله»^(٢).
- ٣ - ذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م): «الصوفي» إذا نطق كان كلامه عن حاله، فهو لا ينطق بشيء إلا أن كان هو ذلك الشيء، وإذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن أحواله، وكانت ناطقة بقطع علاقته الدنيوية عن حاله^(٣).
- ٤ - سر السقطي (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م): «التصوف اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعيه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقصه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكراسات على هتك أستار محارم الله»^(٤).
- ٥ - سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م): «التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس»^(٥).

(١) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسه، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٥) المرجع نفسه.

٢ - الملابس التي كان يرتديها الأنبياء من رعاة الغنم، والتي حكت من أبوبارها.

٣ - الانقطاع والتأمل من قبل الأنبياء، وعيش حياة الرزد والعبادة منذ ما قبلبعث^(٦).

٤ - العلاقة بين لفظة «صوفي» وأهل الصفة، وهم القراء من المسلمين الذين التزمو مسجد الرسول(ص)، من أجل العبادة، وكانوا يعتمدون على صدقات المسلمين^(٧).

٥ - إن كلمة «صوفي» تعود إلى «الغوث بن مُرّ» وهو رجل عرف قبل الإسلام في العصر الجاهلي، وهبته والدته ليخدم البيت الحرام، وقد عرف باسم «صوفي»^(٨).

٦ - كما يعتقد البعض أن كلمة «التصوف» مشتقة من «الصفاء» الذي يعمّر قلوب الزهاد^(٩).

٧ - أن كلمة «صوفي» مشتقة من «صوفيا» اليونانية، أي «الحكمة»، حيث تمّ الربط ما بين الرزد والحكمة التي يصدرها المتصوفة^(١٠).

(١) أحمد علي زهرة، الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، دمشق: دار نينوى، ٢٠١١، ص ١٠.

- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة: كلمات د. ت، ج ١، ص ٥٢.

(٢) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ١٦، ٢٠٠٥، ص ٢٦.

(٣) أحمد علي زهرة، الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، المرجع السابق، ص ١٠.

(٤) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسه، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٥) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٢.

بغداد عاصمة الأمبراطورية جمع المنصروفون إلى حياة التأمل شملهم حلقات حلقات، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها وفي الأوساط المختلفة الخاصة بهم، وهم يحاولون أن يحرکوا [في نفوسهم] الشعور الصوفي ويعتقلوه بواسطة السماع (الموسيقى).^(١) ويعتبر بروكلمان، أن الصوفيين المسلمين استعاروا «من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء، التي عرفوا بسببها بالصوفية»^(٢). وأول من سعى إلى تطهير النفس لتتعرف إلى الله تعالى وتتوصل إلى المحبة والاتحاد به وجعل منها «عقيدة المعرفة» أبو سليمان الداراني (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م)، أما أول صوفي أخذ بمذهب «السلوك» دون التزهد هو «المعروف الكرخي» (٢٠٠ هـ / ٨١٥ م)^(٣).

ويعتبر ذو النون المصري (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م) مؤسس العقيدة الصوفية ومن أقطابها الأوائل، فهو «الذى جعل للصوفية شكلها الدائم، حيث أدخل فكرة أن معرفة الله لا يتم الوصول إليها إلا عبر الوجود»^(٤).

ينقل فيليب حتى أن التصوف في الإسلام كان بداية مقصورةً على حياة الرهد التي تقوم على الاعتزال والتأمل، وهي أشبه ما تكون بحياة النساك عند النصارى.

وبعد ذلك أصبح مع القرن الثاني للهجرة وما بعده، حركة

(١) بروكلمن، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٧٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠٧.

«هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهد، لفساد ما عليه أهل الزمان»^(١).

- ٧- الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م): «التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانية نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصائح الخالص لجميع الأمة، والإخلاص في مراعاة الحقيقة، واتباع النبي ﷺ والشريعة»^(٢).

أما بروكلمان، فيعيد ظهور التصوف إلى التوتر الذي ظهر بين الفرق الدينية، بين الشيعة والسنّة من جهة، والحنابلة والخلاف داخل السنّة أنفسهم، ما دفع «بأصحاب التفوس الأكثر صفاءً وعمقاً إلى الفرار بأنفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية والقضايا المذهبية إلى طمأنينة المشاهدة»^(٣).

ويعيد بروكلمان التصوف إلى العهد الأموي في العراق: «حيث عمل في هذا الاتجاه كل من الحسن البصري (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) في البصرة، وجابر بن حيان الكيميائي الشيعي (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م)، وأبو العتاية (ت ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) في الكوفة. حتى إذا أصبحت

(١) محمد بن الحسين التيسابوري، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٦٩.

(٢) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، المرجع السابق، ص ١٨.

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

٣- ثم الطريقة المولوية، وهي تنسب إلى الشاعر جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م)^(١).

الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر

مع دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، بدأ التيار الصوفي بالظهور والانتشار بشكل واسع، وذلك للخصائص السمحاء التي تحملها الطرق الصوفية.

ومع إيمان أخلاق التصوف بالروح ودورها، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان، ومع تزاحم الناس أمام أبواب المتتصوفة، سارع الأمراء والحكام في بلاد ما وراء النهر إلى تبني هذه الطرق، وتقريب رجال المتتصوفة وتلمندو على أيديهم. هذا ما رفع من شأن رجال الصوفية فبلغوا المراكز العالية داخل الدولة^(٢).

هكذا ظهرت المساجد والتکایا والمدارس، التي أسسها الحكام للمتصوفة، بغية كسب الناس ودعمهم وللبقاء في السلطة.

وتوسع شأن التصوف، حيث نلاحظ في القرن الثالث الهجري وجوداً للمتصوفة في هراة ونيسابور ومرؤ، ومع القرن الرابع الهجري ظهر شیوخ المتتصوفة في بخاري وفرغانة، ووصل إلى خراسان حيث

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، المرجع السابق، ص ٩٧.

جمعت معتقدات من مصادر نصرانية وأفلاطونية وغنوسيّة وبوذية. ويعتبر حتى «أن هناك العديد من أوجه الشبه بين التصوف عند المسلمين وحياة النساك النصارى» وأبرزها:

- ١- لبس الصوف مأخوذ عن رهبان النصارى ومنهم أخذت فكرة العزوّية أو التبتل وهي ليست من الإسلام.
- ٢- تأثرت الصوفية من خلال التأملات الفردية والتبّه الطويل والخلوات بالصوماع السريانية.
- ٣- نظام الشیخ والمرید في طريقة المتتصوفة أشبه ما يكون بنظام الكاهن والمبتدئ عند الرهبان النصارى.
- ٤- حتى حلقات الذكر عند الصوفية يعيدها فيليب حتى إلى الأصل المسيحي^(١).

وقد ظلل التصوف مع القرون الخمسة الأولى مجرد اختبار شخصي، وظهرت بعض الحلقات من المریدين التي وجدت والتفت حول شخصية صوفية.

- هذه الحلقات أخذت تظهر بشكل هيئات منظمة مع نهاية القرن ١٢، وكان أبرزها:
- ١- الطريقة القدرية، نسبة إلى عبد القادر الجيلاني الفارسي (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م).
 - ٢- تلتها الرفاعية وهي تعود إلى أحمد الرفاعي (ت ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م).

(١) فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٥٠٥ - ٥٠٦.

حيثئذ، فكان الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤/٩٣٠ هـ - ٨٥٨ هـ)، وهو من البيضاء، وهي من كورة إصطخر في فارس^(١). وقد تلّمذ على الجنيد البغدادي، بعدها أخذ يجوب في البلاد ناشراً أفكاره، ومع إعدامه في بغداد في ٢٦ آذار عام ٩٢٢ هـ / ١٣١٠ م، قصد أتباعه خراسان وبلاط ما وراء النهر، ومهدوا الأرض لنشوء الشعر الصوفي عند الفرس والأتراء^(٢). ومع حكم السلاجقة لبلاد ما وراء النهر، ظهرت طرق الدراويش وازدهرت في تلك البلاد التي عرفت حيثئذ غنىًّا بالأثر الصوفي^(٣).

كما ارتبط التصوف في إيران وبلاط ما وراء النهر والهند، بشخصيتين من المتتصوفة كان لهما أبرز الأثر في ازدهار التصوف في تلك النواحي، وهما:

١- أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م) وهو من بسطام في خراسان، «واشتهر أبو يزيد بالشطح، وأصله كلمات مستغيرة تصدر عن الصوفي في حال وجده وذهوله بمشاهدة جلال الحق، فلا يدرى ما يقول، أو أنه ينطق بما يشهد بلسان مشهوده»^(٤).

(١) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٥، ٢٠٠٦، ص ٢٠٠.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٣٨.

(٣) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٤) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٨٠.

انتشر بين الأتراء وأخذ شأنه يزداد ويقوى داخل المراكز الإسلامية في كل من بخارى وسمرقند^(١).

ومما ساهم في انتشار التصوف بشكل واسع في بلاد ما وراء النهر، كون «تركمانستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية، فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة»^(٢).

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن ظروف نشأة التصوف في بلاد ما وراء النهر تعود إلى:

- ١- أخلاقيات الصوفية وطريقة تعاملهم مع سكان البلاد.
- ٢- تبني الحكماء لرجال الصوفية.

٣- ظهور طرق باطنية مالت إلى الهرطقة والتربّمات حاربتها الصوفية.

٤- الدعوة إلى الأمان والسكنينة، وهو ما كان يسعى إليه الناس.

٥- روح الجهاد التي تبنتها الصوفية، وبالتالي تحولت الصوفية إلى حام لسكان البلاد من أي اعتداء خارجي^(٣).

أما أبرز دعوة الصوفية في بلاد ما وراء النهر في تلك البلاد

(١) فؤاد كويزيلي، المتتصوفة الأولون في الأدب التركي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٢، ص ٦٣.

(٢) إحسان الهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ط١، ١٩٨٦، باكستان: دائرة ترجمان السنة، ص ٩٨.

(٣) هدى دروיש، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٩٨.

وقد أطلق على هؤلاء لقب: «البابات»، وتعني الدراويش الأتراك الجوالين^(١) وتعني أيضاً الواقع الشعبي أو الشيخ^(٢). وقد لعب هؤلاء دوراً كبيراً من خلال العلاقة مع حياة الناس العاديين في كل المناطق التي وجدوا فيها في بلاد ما وراء النهر وفارس، وخصوصاً أن هؤلاء الدراويش كانوا من الأتراك والفرس تحديداً^(٣) ومع انهيار دولة السلاجقة في بلاد الشام، قوي نشاط الدراويش وازداد، خصوصاً مع حاجة الناس إلى الشعور بالطمأنينة مع الفوضى السياسية التي مرت بها بلادهم حينذاك^(٤). ويبلغ نفوذ المتصوفة شأنهاً وتأثيراً كبيرين، حتى أن النساء القراء الطائفين وأتباعهم، ابتعدوا عن شرب الخمور^(٥). وأصبح التصوف مهنة مع الوقت، وزادت شعبية أماكن وجود الطرق الصوفية، حيث الخانقاوات، والرباطات، والتوكايا، التي انتشرت بسرعة وخصوصاً في العصر السلجوقي^(٦) حيث عمد السلاجقة إلى التقرب من علمائهم وشيوخهم، وعاملوهم بالتقدير والتجليل^(٧).

(١) ترجمة فؤاد كوبيريلي، المتصوفة الأولون، المرجع السابق، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٥) محمد فؤاد كوبيريلي، المتصوفة الأولون، المرجع السابق، ص ٦٣ - ٦٤.

(٦) ترجمة فؤاد كوبيريلي، المتصوفة، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٧) محمد فؤاد كوبيريلي، المرجع السابق، ص ٦٣ - ٦٤.

٢- الجنيد البغدادي، الصوفي العراقي (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م)^(٨)، وهو من نهاوند، وهي مدينة بالقرب من همدان^(٩)، وأساس مذهبة هو مراقبة الباطن، وتصفية القلب، وتزكية النفس، والتخلق بالأخلاق الحميدة^(١٠).

وهكذا انتهى مؤسس المدارس الصوفية في بلاد ما وراء النهر، إلى مدرستي الجنيدية والبسطامية^(١١).

ترافق ذلك مع ظهور عدد من الدراويش الجوالين غير المرتبين بأي شيخ أو مدرسة صوفية معروفة^(١٢). وقد عمد هؤلاء الدراويش إلى الاشتغال بالتسبيح والترتيل وقراءة الشعر، وكانوا يظهرون العطف والشفقة على الناس، وينادون بعمل الخير والإصلاح والكرم^(١٣). ومن بلاد ما وراء النهر، كان المتصوفة من الدراويش يتقللون إلى الهند نحو الجنوب، أو إلى الأناضول غرباً، ناشرين أفكارهم وطرقهم^(١٤).

(١) سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحرياني، بيروت: دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٩٧، ص ٩٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣١٣.

(٣) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٤) سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) محمد فؤاد كوبيريلي، المتصوفة الأولون في الأدب التركي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص ٦٥.

(٧) ترجمة فؤاد كوبيريلي، المتصوفة، المرجع السابق، ص ١١٣.

١- العلامة الصوفي يوسف الهمذاني

(٤٤٠-٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م)

وهو شخصية صوفية كان له دور كبير في وسط آسيا، والمؤسس الروحي لطريقة «خو جاغاد»، كما أنه يُعد مؤسس المدرسة الصوفية في آسيا الوسطى، وهو من همدان من قرية بوزانجار.

انتقل إلى بغداد، وتلقى علومه في الفقه عند الفقيه أبي إسحق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م). بعدها انتقل إلى اصفهان وبخارى، حيث أكمل علومه في مبادئ الفقه والدين، لمع اسمه في العراق وخراسان وما وراء النهر وخوارزم، ونال لقب صوفي من عدة مشايخ كبار، كالجويني والسمناني والفرمادي^(١).

درس الفلسفة العقلية ودرس فيها، ثم تحول عنها إلى الرياضة الروحية، والتفرغ للتعبد لله عز وجل، وإلى دعوة الناس إلى الطريق المستقيم^(٢).

تنقل بين بخارى وسمرقند ومرغ وهراء، وتفرغ لتعليم المبادئ الصوفية^(٣).

(١) بوريبيوي أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩، ص ١٦٨.

Hasan Lutfi Shushud, Masters of wisdom central Asia, Inner Tradition,
Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 15-16.

ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) بوريبيوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٦٨.

هكذا تطورت حركة التصوف داخل المجتمعات التركية والفارسية، حيث ظهرت مراكز أصبحت مقار للطرق الصوفية، أو مدارس لها، فظهر المركز أو الحلقة التي تركزت على مرشد أو موجه واحد، لتحول إلى مدرسة تخلد ذكره ونوع تعليمه وممارساته الصوفية وأسلوب حياته^(٤).

وفي هذه المرحلة بالذات، أي في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، ظهرت شخصيات بارزة في التاريخ الصوفي في آسيا الوسطى، كان لها الدور والتأثير البارزان في حركة التصوف والمنحي الذي تبنته في طرقها وهما:

١- أبو الحسن الخرقاني (ت ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م). الذي اعتبر نفسه الوريث الروحي للبساطامي.

٢- أبو علي القرمذني (ت ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) ويضاف إلى ذلك شخصيات صوفيات من تلاميذ القرمذني، اشتقت عنهم الخطوط الرئيسية للتصوف في وسط آسيا وهما:

١- أحمد الغزالى (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) وهو الأخ الأصغر لأبي حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) الملقب بمجدد القرن الخامس الهجري.

٢- يوسف الهمذاني (ت ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م)^(٥).

(١) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

كانت تكية في مرو مشهورة، واعتبرت كعبة خراسان في تلك الفترة كما قصد بغداد للوعظ والنصح في العصر السلجوقى، حيث كان يقصده الصفة المختارة^(١).

وفي ذلك ينقل ابن الأثير: عن العام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م، «وفيها ورد إلى بغداد يوسف بن أيوب الهمذاني الوعظ، وكان من الزهاد العابدين، فوعظ الناس بها، فقام إليه رجل متفقه يقال له ابن السقاء، فآذاه في مسألة وعاوده، فقال له الهمذاني: أجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير دين الإسلام، فاتفق بعد مديدة أن ابن السقاء خرج إلى بلاد الروم وتنصر»^(٢).

أما ابن خلkan فيعرف الهمذاني بقوله: «الفقيه العالم الزاهد الجليل والرباني، صاحب المقامات والكرامات، قدّم بغداد في صباه بعد الستين وأربعين، ولازم الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وتفقه عليه، حتى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف... وسمع بأصبهان وسمرنند، وكتب أكثر ما سمعه، ثم زهد في ذلك ورفضه، واستغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة حتى صار علماً من أعلام الدين تهتدي به الخلائق إلى الله تعالى...»^(٣).

(١) Hasan Lutfi Shushud, Masters of wisdom central Asia, Inner Tradition, Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 22.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥١١.

(٣) ابن خلkan، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الصياد، ط ١، ١٩٩٤، ج ٧، ص ٧٨.

تعلم على الهمذاني العديد من التلاميذ، كما نسب عدد لا يأس به من رجال الصوفية المعروفون أنفسهم إليه، وأبرزهم خواجا عبدالله باركي، وخواجا حسان أنداكى، وخواجا أحمد يسوى، وخواجا عبد الخالق غيجد وفاني^(٤).

ويمكن أن نعتبر أن اثنين فقط من هؤلاء التلاميذ أنشأ طريقين للصوفية، وهما: «عبد الخالق غيجد وفاني» وهو خط فارسي، «أحمد يسوى» وهو خط تركي^(٥).

أورد ياقوت الحموي نسب الشيخ يوسف الهمذاني قائلاً: «أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسن بن وهرة الهمذاني البوزنجردي، كان إماماً ورعاً متنسقاً عاماً بعلمه، له أحوال وكرامات وكلام على الخواطر، وإليه انتهت تربية المریدين، تفقه على أبي إسحق الشيرازي وسمع منه الحديث ومن غيره من العراقيين»^(٦). تحول نحو الطريقة الصوفية، وذلك على يد الشيخ «أبي علي فرمدي»^(٧).

كان على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وعمل على الإرشاد والهداية في بلاد ما وراء النهر^(٨).

(١) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٧.

(٤) كويرلي، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٥) المرجع نفسه.

٢- الشيخ أحمد يسوى (ت ٥٦٤ هـ / ١١٦٦ م)

كان الخواجا أحمد يسوى من تلامذة العلامة يوسف الهمذانى ومن المقربين إليه، أصبح من أوائل شيوخ الصوفية في بلاد ما وراء النهر، مؤسسًا لطريقة صوفية، عرفت «باليساوية»^(١).

ولد الشيخ أحمد يسوى في مقاطعة «صيرام»^(٢) إلى الشمال الشرقي من مدينة «آق صو» الواقعة في إقليم تركستان إلى الشرق من الصين^(٣)، في أواسط القرن الخامس للهجرة / الحادى عشر للميلاد. كان والده الشيخ إبراهيم من رجال الدين المشهورين في إقليم «صيرام» قد تزوج من «عائشة خاتون» ابنة أحد تلاميذه الشيخ موسى، فأنجب منها «جوهر شاهناز» وأحمد يسوى، وسرعان ما توفيت والدتهما «عائشة خاتون» ولحق بها والدهما «الشيخ إبراهيم»، فتربى أحمد يسوى عند شقيقه «جوهر شاهناز»^(٤).

بعد ذلك، ينتقل الشيخ أحمد يسوى إلى مدينة «يسى»^(٥) التي ينتسب إليها باللقب^(٦) وفي هذه المدينة تلقى بعض العلوم على

(١) بوريبيوي أحمدووف، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(*) صيرام: مقاطعة تطل على إقليم «قره صو»، يمر فيها نهر «شيهار» وهو فرع لنهر ياريم، كوبيريلي، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) كوبيريلي، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(**) يسى: هي مدينة مشهورة في دار الملاك بالتركستان، كانت عاصمة سلطنة الأوزبك، وهي مدينة القازاق، كانت فيما سبق تقع شمال سمرقند وتسمى «نسا».

(٤) كوبيريلي، المرجع السابق، ص ١٢٤.

ويضيف: «... إلية انتهت تربية المريدين الصادقين، واجتمع برباطه بمدينة مرو، جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى ما لا يتصور أن يكون في غيره من الرابط مثلهم»^(١).

وعند فؤاد كوبيريلي ورد في تعريفه للهمذانى قوله: «كان يحبس نفسه في صومعة عبادته»^(٢) ويعتقد أنه كان يحتفظ بعمامة سلمان الفارسي وعكاشه. وكان يدعوه شيخ سمرقند لعقد مجلس لدراسة علوم الشريعة، كما كان يداوى الجرحى ومرضى الحمى، ووصف الأدوية للمرضى، وتعليم القرىوين دينهم، ويقصد ديار النصارى وعبدة النار للدعوة إلى الإسلام»^(٣).

وكان سلاطين السلاجقة يجلونه، وينقل أن السلطان سنجر أرسل خمسين ألف قطعة من الذهب من أجل دراويش تكتيه مع رسالة يطلب فيها من أصحاب الشيخ عدم الانفصال عنه، والتضرع إلى الشيخ كي يقرأ له الفاتحة.

كان هذا الموقف من السلطان سنجر متبعاً في تلك الفترة، حيث كان السلاطين والأمراء كما أوردنا يتقدرون من المتصوفة لكسب ود العامة ولتأييد قراراتهم التي يتخذونها، ولدعمهم في حروبهم^(٤).

(١) ابن خلكان، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) كوبيريلي، المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

ومع وفاة الشيخ يوسف الهمذاني كان أحمد يسوى الخليفة الثالث له^(١).

إلا أن الشيخ أحمد يسوى، سرعان ما عاد إلى مدينة «يسى» حوالي العام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، ليتوفى بعدها في هذه المدينة عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م^(٢).

يقول سبنسر ترمنجهام عن العلامة أحمد يسوى: «ورغم أننا نعرف القليل عن حياته، فإن أهمية أحمد في تكوين التراث الإسلامي التركي ليس محل خلاف، فهي أول طريقة صوفية يؤسسها تركي، والتراث الياساوي له الكثير من الفروع الدينية والاجتماعية الثقافية، وقد لعب دوراً في نشر الإسلام بين القبائل التركية، وفي تأسلم الإسلام بالأوساط البدوية التركية، وفي التوفيق اللغوي خلال قصائد أحمد»^(٣).

وكما معلم يوسف الهمذاني، فإن أحمد يسوى ذاع صيته، كشيخ صوفي «جليل وشاعر وواضع موهوب عبقري»^(٤). عاش حياة متواضعة ويسطحة، و Ashton بالدعوة عبر أشعاره إلى الصدق والعدل والصبر والتزاهة والأمانة^(٥).

وفي مدينة يسي قصده الألوف من التلامذة والمربيين، من

(١) بوريبيyi أحمدوF، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) كوبولي، المرجع السابق. ص ١٢٦.

(٣) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤) أحمدوF، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

الشيخ «أرسلان بابا»، وهو أحد المشايخ المعروفين ممن كان الأئراك يقصدونهم للتواصل البركة والدعاء^(٦)، ويعتقد أن أرسلان بابا هدأه إلى التصوف^(٧).

بعدها يتقلل الشيخ أحمد يسوى إلى بخارى، التي كانت تخضع حينئذ للقراء الطائرين في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، وكانت بخارى حينئذ مقصدًا للعديد من طلاب العلم ومن مختلف مناطق تركستان^(٨).

وكان أبرز علماء بخارى من المتصوفة، في تلك الفترة، هو الشيخ «يوسف همداني» وقد انضم أحمد يسوى إلى حلقة^(٩). وقد تلقى الشيخ يسوى منه آداب الطريقة والسلوك وتعلم منه كذلك العلوم الظاهرة والباطنة وطوف معه مختلف الأقاليم والبلدان التي كان يسافر إليها^(١٠).

فكان يوسف الهمذاني القدوة الحسنة للشيخ أحمد يسوى في العلم والزهد والفضيلة والتقوى، وأصبح له آصرة وثيقة العرى بأحكام الشريعة^(١١).

Hasan Lutfi Shushud, *Masters of wisdom central Asia, Inner Tradition*, (١) Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 19, 23-24.

(٢) محمد فؤاد كوبولي، *المتصوفة الأولى*، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

يقول الكاتب التركي فؤاد كوبيريلي: «لقد كان أحمد يسوى شاعراً صوفياً غريباً تماماً عن المحسنات البدعية، كما أن خياله الشعري ليس خصباً مثل غيره من المتتصوفة، لا يكتثر ولا يبالي بالعالم الخارجي ومظاهره وهو في لجة عالم الوحدة، قانع قابع، وهو يستطيع تشبيه الدنيا بأن لها نهاية واحدة مثل حبة الخشخاش»^(١).

«لزام عليك أيها العاشق أن تغلل نفسك بغل المحبة حتى تكون عاشقاً، ولكن يتوجب عليك قبل كل هذا أن تقتل النفس، ومن ثم يجب عليك أن تتحمل بالصبر والتحمل في سبيل تجشم هذه المصائب والنکبات وما يعتور سبيلك من مشاق طويلة وعذابات»^(٢).

آداب اليسوية

كما كل طائفة من الطرق الصوفية، فإن لليسوية آداباً خاصة يجب التمسك بها وهي:

١- الإذعان والتسليم المطلق للشيخ، ولا يعرف المريد فضلاً لأحد عليه سوى شيخه، إنه في حاضرة المرشد في كل صنوف الطعام والشراب، ويقضى لياليه في السبات العميق...
ولكنه عندما ينفصل عن شيخه فإنه ينهض قائماً بالليل صائماً بالنهار رغبة في إرضاء شيخه مقتاناً بالبكاء والتجرد ليسد طريق الترقى للدرويش.

(١) كوبيرلي، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

مختلف أنحاء تركستان، وكانت الظروف السياسية مؤاتية في تلك الفترة، حيث دولة «خوارزم شاه» الإسلامية، التي كان شيوخ الصوفية أصحاب نفوذ قوي فيها. لظهور التكايا والزوايا بشكل واسع. وفي هذه الظروف نفسها اتسعت شهرة أحمد يسوى، وظهر حوله عدد كبير من علماء بخارى وسمرقند ومدن خراسان^(١).
وعند بلوغه سن الثالثة والستين، عمد الشيخ أحمد يسوى إلى بناء صومعة للتعبد في تكتيه، وانزوى فيها، وهى من تقاليد الصوفية^(٢) وكان للشيخ أحمد يسوى ولدان هما «جوهر خوشناس» و«جوهر شاهناز»^(٣).

وأثناء وجوده في «يسى» وضع الشيخ أحمد يسوى ديوانه المشهور «ديوان الحكمـة»، ظهرت من خلاله منظوماته الصوفية على شكل حـكمـ. واعتبر كتاباً مقدساً عند أتراك الشرق والشمال وأوزبك والقرقيز وأتراك الفولجا^(٤). وقد كتبه أقرب ما يكون إلى الأدب الشعبي، وهو ما ساهم في انتشاره بشكل واسع^(٥).
وتعد أشعار المفكر العظيم نموذجاً للغة الأوزبكية القديمة والشعر التركي في الفترة ما بين القرنين ١٠-١٢ م^(٦).

(١) محمد فؤاد كوبيرلي، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٦) بوريبيو أحمدوـفـ، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

- أ - علم ديني يقيني.
- ب - حلم مبين متين.
- ج - صبر جميل.
- د - الرضى الجليل.
- ه - إخلاص خليل.
- و - قرب جزيل^(١).

وسنن الطريقة هي ستة أيضاً:

- أ - صلاة في الجماعة.
- ب - استيقاظ في الأسحار.
- ج - دوام الوضوء.
- د - حضور الله.
- ه - ذكر الله.

و - طاعة للصالحين والمعتدين.

ومستحبات الطريقة هي ستة:

- أ - إكرام وفادة الضيف بكل بشر وسرور.
- ب - قبول الضيف مهما كان حاله.
- ج - العلم بأن المبالغة في إكرام الضيف مغنم عظيم.
- د - إقامة موائد الضيافة.
- ه - بذل الجهد للقيام بعمل ما يريده الضيف.
- و - الدعاء لأحمد يسوى.

(١) كويريلي، المرجع السابق، ص ١٧٣.

٢- يجب أن يكون المريد فطناً ذكياً أمعياً، وعليه أن يفهم ويعي رموز شيخه وإشاراته.

٣- يتوجب على المريد كذلك أن يكون راضياً عن كل أقوال وأفعال شيخه مطيناً لها.

٤- يلزم المريد أن يكون خفيف الحركة نشيطاً، ولا يستقل خدمة شيخه ليحظى برضاه، لأن رضا الله من رضا شيخه.

٥- أن يكون المريد مستعداً دائماً كي يوزع كل ما تملك يداه من مال ومتاع على شيخه.

٦- يجب أن يكون على أهبة الاستعداد دائماً لكي يُضحي بروحه في سبيل شيخه حتى يحظى بوصال الله، ولزاماً عليه أن يعيش صديقاً لصديق شيخه، عدواً لعدوه، مستعداً لبيع نفسه كالعبد الرقيق من أجل تلبية حاجات شيخه... الخ^(١).

أما بالنسبة إلى أحكام الطريقة فهي ستة:

أ - معرفة الحق.

ب - السخاء المطلق.

ج - الصدق المحقق.

د - اليقين المستغرق.

ه - توكل الرزق المطلق.

و - إيمان وتفكير مدقق.

أما أركان المشيخة والقدوة فهي ستة:

(١) كويريلي، المرجع السابق، ص ١٧٢-١٧٣.

ومن بعد هذا الأخير، الشيخ محمد بهاء الدين الأوسى البخاري، المعروف بشاه نقشبند، وقد أطلق على طريقته اسم «النقشبندية»، ويعرفها محمد درنيقة على الشكل الآتي: «وهي تتألف من جزئين: نقش وهو صورة الطابع إذا طبع به على شمع أو نحوه، وبند ومعناه ربط وبقاء من غير محو، وهي تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه فيه»^(١). ويعيد الشيخ فريد الدين آيدن معنى نقشبند، بقوله: «كان يطلق اسم «نقشبند» على الرسام والنقاش الذي يعمل الوشایا والنمنمة على الأقمشة في اللهجة التركية القديمة، أما سبب تسميتهم بالنقشبندية لأنهم يزعمون أنهم يسعون إلى نقش محبة الله تعالى في قلوبهم بالذكر المتواصل السلوك المأثور من ساداتهم»^(٢). ويعتقد أن النقشبندية هي «اليسوية»، ولكنها ظهرت بزي جديد وهي امتداد لها^(٣).

فالنقشبندية واليسوية تتحدا في الطقوس والعقائد والمراسيم الصوفية، حتى أن بهاء الدين نقشبند يقول إنه تلقى الفيض وتعاليم التصوف على يد الشيخ خليل آتا، أحد شيوخ الطريقة اليسوية^(٤).

(١) محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، بيروت: جروس برس، د.ت.، ص ١١.

(٢) الشيخ فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، تركيا: العبر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ص ٥.

(٣) بديعة عبد العال، النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الأتراك، القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٣-١٤..

(٤) بديعة عبد العال، المرجع السابق، ص ١٥ + كويريلي، المرجع السابق، ص ١٨٧.

وآداب الطريقة ستة: أن يتواضع ويجهو على ركبته.

أ - الجلوس في أدب جم.

ب - إظهار الذل والخضوع لكل شخص.

ج - إظهار فضائل الناس عليه.

د - أن يكون على علم ودرية بقدر العلماء والمشايخ وأن يقف في حضرتهم في سكينة وهدوء.

ه - آلآ يتغّرّب بكلمة في مجلس الشيخ من دون استئذان.

و - أن يخفى في ذاكرته رموز وكرامات وسر ولادةشيخه وسائر المشايخ الآخرين^(١).

الطرق الصوفية المتأثرة بالشيخ أحمد يسوي

أبرز هذه الطرق هي:

أ - النقشبندية.

ب - البابكاشية^(٢).

أ- النقشبندية

يعتبر الشيخ يوسف الهمذاني، مؤسس الطرق الصوفية في وسط آسيا، ومن بعده كل من الشيخ أحمد يسوي، والشيخ عبد الخالق الغيجدوفاني^(٣).

(١) محمد فؤاد كويريلي، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٣) بوريبيو أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، المرجع السابق، ص ١٦٨.

فالنقشبندية راجت من بعد أحمد اليسوي، في بلاد ما وراء النهر، ومن ثم وصلت إلى خراسان وخوارزم واتسعت رقعة نفوذ مشايخها في القرنين التاسع والعشر الميلاديين، دعمتها السلطة الحاكمة وأصبح الأمراء من مريديها، لتصل النقشبندية إلى ذروة مجدها في القرن السادس عشر للميلاد^(١).

ولد عبد الخالق الغجدواني (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م)، مؤسس النقشبندية، بقرية غجدوان قرب بخارى، وقد تعرف إلى طريقة جديدة في الذكر، وهي أنه كان يغطس في الماء ويدرك بقلبه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فكان أول من اشتغل بالذكر الخفي على هذه الطريقة، وأدخلها في التصوف^(٢).

لازم الغجدواني الشيخ يوسف الهمذاني في بخارى، بعدها توجه الغجدواني نحو الشام حيث بنى زاوية، وكان له العديد من التلاميذ المنتشرين في أنحاء العالم الإسلامي، وخصوصاً في وسط وغرب آسيا^(٣).

وكان للغجدواني عدة وصايا، منها:

«يا بني أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السنة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم صلاة الجمعة، وإياك

(١) بديعة عبد العال، المرجع السابق، ص ١٧-١٥.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

والشهرة فإنها آفة، وكن واحداً من الناس ولا تمل لمنصب ولو كان محموداً^(١).

أما محمد بهاء الدين النقشبendi (٧٩١-٧١٧ هـ / ١٣٨٨-١٣١٨ م).

فهو شيخ هذه الطريقة التي أخذت اسمها منه، ولد في قصر العارفان، إحدى قرى بخارى، تعلم على يد الشيخ محمد بابا السماسي، وبعد وفاة هذا الأخير، رافق الشيخ الأمير «كلال»، وأنشأ ذلك بدأ بالذكر الخفي^(٢). تنقل بين مرو وبخارى، ليعود بعدها إلى بلدته قصر العارفان، وذاع صيته، فقصده الناس من المناطق كافة. وكان دائم البقاء في خلوته في آخر حياته، إلى أن مات ودفن في بستان منزله^(٣).

للنقشبندية عدة رسائل:

- تبنيه العافلين.
- سلك الأنوار.

هدية السالكين وتحفة الطالبين^(٤).

يعتبر النقشبندية أن طريقتهم هي طريقة الصحابة من دون زيادة

(١) بديعة عبد العال، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، المرجع السابق، ص ١٨.

ترمذنجمام، المرجع السابق، ص ١١١.

(٣) محمد درنيقة، المرجع نفسه، ص ١٩.

Hasan Shushud, *Masters of wisdom central Asia*, 2007, p. 29-30. (٤)

- درنيقة، المرجع السابق، ص ٢٠.

- ١- «إن معتقد سادتنا النقشبندية... هو معتقد أهل السنة والجماعة ومبني طريقتهم على حفظ أحكام الشريعة المطهرة»^(١).
- ٢- «قد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخاً يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله تعالى بقلبه لتصح صلاته من باب لا يتم الواجب إلا به».
- ٣- «إن كل من لم يتخذ له شيخاً يرشده إلى الخروج عن هذه الصفات فهو عاصٍ لله تعالى ورسوله لأنَّه لا يهتدي لطريق العلاج بغير شيخ ولو حفظ ألف كتاب في العلم».
- ٤- «إياك أن تقول طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة فإنه كفر».
- ٥- «لا يكمل طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد من أشياخ الطريق ليخرجه من رعونات النفوس ومن خطرات تلبيس النفس»^(٢).
- ٦- «فمن اتخذ له شيخاً يسلكه في طريق الله تعالى يلزمُه أن يرى شيخه باباً من أبواب الله تعالى».
- ٧- «إن الظاهر للتلמיד من وراء صورة الشيخ ونفسه وعقله هو الله الذي لا إله إلا هو والشيخ كله أثر من آثار الله تعالى»^(٣).
- ٨- «المعرض عن طريقتنا على خطير من دينه».

(١) محمد عبدالله الخالدي النقشبendi، البهجة السنينة في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية، طبعة بالألوفت، إستانبول، مكتبة الحقيقة، ٢٠٠٢، ص ٥.

(٢) النقشبندi، المرجع السابق، ص ٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨.

أو نقصان، « فهي تدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية، وهي تحض على العزائم وتتجنب الرخص في الحركات والسكنات، وفي العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابداع والانحرافات والشطحيات والرقص وسفاسف السماع، وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، وبالتالي فإنها سليمة من كدورات جهله المتصرفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال وفضيلة الوسط»^(٤).

من سمات النقشبندية رفض كل أنواع التعصب والتطرف، ولهذا كان انتشارها عنصراً مكملاً للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، فحققت نفوذاً في مناطق الداغستان وشرق الشيشان وشمال آذربيجان، وامتدت إلى المناطق الشرقية والجنوبية من تركمانيا في آسيا الوسطى، ووادي فرغانة، خاصة منطقة القيرغيز، وفي خوارزم، وفي منطقة القارات الباقي^(٥).

ومن أبرز ما تدعو إليه النقشبندية:
يقول الشيخ محمد عبدالله الخاني الخالدي النقشبندi (ت ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م)، وهو أحد مشايخ هذه الطريقة، في تعريف النقشبندية:

(١) المشخانوي النقشبندi، جامع الأصول، المطبعة الوهبية، ١٨٨١، ص ١٤٩.
Itzhak Weizmann, *The Naqshbandiyya*, Routledge, London and New York, 2007, p. 29-30.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والتوغاز، المرجع السابق، ص ١٠٢.

إنها في ابتدائها، وابتدأوها انتهاء غيرها لما فيها من انجذاب المحبة الذاتية مما فضل به واسطتها الصديق الكبير، ولها أصلان أصيلان من أعطيهما أعطي كل شيء: كمال اتباع النبي ومحبة الشيخ الكامل»^(١).

٤ - «النقشبندية مبنها على اتباع السنة الستية وقمع البدعة الردية، مؤسسها بالتهذيب والتنقیح أفضل الأمة بعد الأنبياء على التحقیق أبو بكر الصديق... ومشیدها شیخ مشایخ الإسلام بباء الحق والحقيقة والدين النقشبندی الإمام»^(٢).

٥ - الطريقة النقشبندية مبنها على التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته بكلمة في قوله «ما صبَّ في صدرِي شيئاً إلا وصبتَه في صدر أبي بكر الصديق وهو واسطة هذا العقد ومؤسس هذا المجد»^(٣).
فالمطلوب:

تصحیح المعتقدات على وفق عقائد أهل السنة والجماعة.
العلم بالأحكام الشرعية من الفرض والواجب والسنة والمندوب والحلال والحرام والمکروه والمشتبه، المذکورة في علم الفقه.
العمل بمقتضى هذا العلم.
سلوك طریق الصوفیة^(٤).

(١) النقشبندی، المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦.

٩ - «إمامنا وقدوتنا إلى الله تعالى بباء الحق والحقيقة والدين الشيخ محمد الأویسي البخاري المعروف بشاه نقشبند»^(١).

١٠ - «قال الشاه نقشبند طريقنا أقرب الطرق، فالمحروم من يدخل هذا الطريق ولا يستقيم».

١١ - «ومن خواص هذا الطريق أيضاً أنه يكون في ابتدائها الحلاوة والوجدان وفي انتهائها عدم اللذة والفقدان الذي هو من لوازمه، بعكس سائر الطرق إذ في ابتدائها عدم اللذة والفقدان وفي انتهائها الحلاوة والوجدان»^(٢).

١٢ - «الطريقة العلية السالمة من كدورات جهله الصوفية هي الطريقة النقشبندية»^(٣).

١٣ - «الطريقة النقشبندية طريقة الصحابة على أهلها ولم يزيدوا ولم ينقصوا، وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً بكمال الالتزام للسنة، والعزمية وتمام الاجتناب عن البدعة، والرخصة في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات مع دوام الحضور بالله تعالى، على طريق الذهول والاستهلاك، فهي طريق الانصياغ والانعکاس بكمال ارتباطهم حباً، مع هذه المجاهدة الزكية المستور، يستوي في استفاضتها الشیوخ والصیبان، وفي إفاضتها الأحياء والأموات، ومندرج

(١) النقشبندی، المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

الحسين، وأمير المؤمنين، والرسول ﷺ ، وهذه النسبة تسمى سلسلة الذهب^(١).

آداب الطريقة

- ١- من دخل هذه الطريقة وهو متزوج فلا يطلق أو أعزب فلا يتزوج حتى يكمل.
- ٢- أن لا يصرح في مباح أصلًا فإنّه تضييع للوقت^(٢).
- ٣- العمل بالأحكام الشرعية.
- ٤- العمل بمقتضى هذا العلم.
- ٥- السلوك في طريق التصفية والتزكية المختصة بالصوفية الكرام^(٣).
- ٦- الإقبال على الطريق وعدم الالتفات إلى غيرها.
- ٧- التوبة إلى الله من كل زلة.
- ٨- الاجتهاد في إرضاء الخصوم ورد الحقوق^(٤).
- ٩- الخروج عن حب المال والجاه^(٥).
- ١٠- الإعراض عن الدنيا إعراضًا كلياً^(٦).
- ١١- الصمت وقلة الكلام فلا يتكلم إلا عن ضرورة^(٧).

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٣) النقشبندى، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٨.

رجال الطريقة النقشبندية وأسيادها ومن أخذ عنهم

- الشيخ محمد البخاري المعروف بعلاء الدين العطار.
- شاه نقشبند الشيخ محمد الأويسى البخارى.
- مير كلال.
- الشيخ محمد السماسي.
- علي الرامتین.
- الشيخ محمود الأنجيري فغنوی.
- عارف الريوکری.
- عبد الخالق الغجدوانی.
- الشيخ يوسف الهمدانی.
- أبو علي الغارمدي.
- أبو الحسن الخرقانی.
- أبو يزيد البسطامي.
- عن ناطق الإمام جعفر الصادق عن والد أمه قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.
- سلمان الفارسي.
- عن أفضل الأئمة خليفة الرسول ﷺ أبي بكر الصديق.
- عن الرسول ﷺ^(١).

- الروذ باري، والكرخي، والسرى السقطي، والأئمة من الإمام علي الرضا، والكاظم، الصادق، والباقر، وزين العابدين، والامام

(١) النقشبندى، المرجع السابق، ص ١٩.

- الأقوال لأن الشيخ قد يعمل بعض الأعمال بحسب مقامه وحاله وذلك العمل يكون على المريد سماً قاتلاً.
- ٥- المبادرة بإثبات ما أمره به من غير تأويل ولا تسويف فإنها من أعظم القواطع.
- ٦- العمل بما لقنه شيخه من ذكر أو توجه أو مراقبة وترك جميع الأوراد غير المأثورة.
- ٧- أن يرى نفسه أحقر من جميع الخلق، ولا يرى لنفسه حقاً على أحد، ويخرج من عهدة حقوق غيره بالأداء والتوفيق، وقطع العلاقة بما سوى المقصود^(١).
- ٨- عدم الخيانة لشيخه في أمر من الأمور، واحترامه وتعظيمه على أقصى الوجه، وتعمير قلبه بالذكر الملعن به، وطرد الغفلة والخواطر.
- ٩- أن لا يكون مراده في الدنيا والآخرة غير الذات الأحديّة، ولو من حال، أو مقام، أو فناء، أو بقاء، وإن فهو طالب لكمال نفسه وأحوالها، فينبغي أن يكون كالميّت بين يدي الغسال، وأن لا يرد كلام الشيخ وإن كان الحق مع المريد، بل يعتقد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابه، ولا يشير للشيخ بشيء إن لم يسأله.
- ١٠- أن يكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ ولمن يقدمه عليه من الخلفاء والمريدين، وإن كان من عملهم أقل من عمله الظاهري.

(١) المرجع السابق، ص ٤١.

- ١٢- لو وصل إلى أي محل وصل لا يرى نفسه إلا في أول قدم من الطريق.
- ١٣- لو نال من السلوك أعلى المراتب لا يرى نفسه إلا أقل من فرعون نفسه بمئة مرة.
- ١٤- الابتعاد عن أماكن المعصية، وعدم النظر إلى وجوه العصاة لأنه يورث قساوة القلب عكس رؤية أهل الخير والصلاح^(٢).
- ١٥- عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام بالطريق دون التخلق بأخلاق العلماء^(٣).

الشرائط والأداب مع الشيخ

- ١- لا يتعرض في القلب على أفعال الشيخ.
- ٢- أن يظهر الخواطر خيراً أو شرًا لشيخه لمعالجه، فإن الشيخ كالطيب فإذا حصل له الاطلاع على أحوال المريد فإنه يتوجه إلى إصلاحه ورفع أمراضه^(٤).
- ٣- الصدق في الطلب، فلا تغيره المحن والشدائد، ولا يفتره العزل والمكاييد، والمحبة المفرطة الصادقة لشيخه أكثر من نفسه وماليه وولده، معتقداً أنه لا يحصل له المقصود من الملك المعبد إلا بتوسط شيخه.
- ٤- أن لا يقتدي بجميع أفعال شيخه العادية إلا أن يأمره بها، بخلاف

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٣) النقشبندى، المرجع السابق، ص ٤١-٤٠.

- ٧- غض الصوت في مجلس الشيخ.
- ٨- معرفة أوقات الكلام معه.
- ٩- كتمان أسرار الشيخ.
- ١٠- لا يكتم شيئاً... مما وبهه الله عن الشيخ.
- ١١- أن لا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلا بقدر أفهمهم وعقولهم.
- ١٢- إذا حصلت العقيدة بالشيخ يقول عنده جئت إليكم لطلب معرفة الله تعالى، وبعد قبول الشيخ لا يت未成 شيئاً بل يخدمه بالميل والرغبة حتى يحصل له القبول التام عند الشيخ.
- ١٣- أن لا يتحمل أمانة تبلغ سلام الغير إلى الشيخ^(١).
- ١٤- أن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ.
- ١٥- أن لا يتوضأ بمرأى من الشيخ، ولا يرمي البزاقة والمخاطة في مجلسه، ولا يصلي التوافل في حضوره بل معه.
- ١٦- أن يبادر بإثبات ما أمره به الشيخ بلا توقف أو إهمال ولا تأويل^(٢).

أنواع المشايخ

الشيوخ الثلاثة عندهم:
شيخ الخرقة.
شيخ الذكر.
شيخ الصحبة.

(١) النقشبendi، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢) المرجع نفسه.

- ١١- أن لا يظهر حاجته إلى أحد غير شيخه فإن لم يكن شيخه حاضراً وحصل له الضرورة لسؤال من صالح سخي متقد.
- ١٢- أن لا يغضب على أحد لأن الغضب يميت نور الذكر، وأن يترك المناظرة والمحاكمة بالجدال مع طلبة العلم لأن المناظرة تورث النسيان والكدورات، وإذا وقع منه الغضب أو المحاكمة مع أحد يستغفر ويطلب منه العذر، وإن كان هو محقاً، ولا ينظر إلى أحد بنظر الحقارة بل من رآه يحسبه أنه الخضر(ع)، أو ولد من أولياء الله تعالى الكرام فيطلب منه الدعاء^(١).

الآداب المطلوبة من المربي مع الشيخ

- ١- أن يكون اعتقاده مقصوراً على شيخه معتقداً أنه لا يحصل مطلوبه أو مقصوده إلا على يد هذا الشيخ.
- ٢- أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ يخدمه بالمال والبدن.
- ٣- أن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ في جميع الأمور.
- ٤- الفرار من مكاره الشيخ... وكراهة ما يكره الشيخ^(٢).
- ٥- عدم التطلع إلى تعبير الواقع والمنامات والمكاشفات.
- ٦- إن سأله أحد الشيخ عن مسألة فإيه والمبادرة بالجواب في حضرة الشيخ.

(١) النقشبendi، المرجع السابق، ص ٤٢-٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢.

٢- البكتاشية: حاجي بكتاش (٦٤٥-٧٣٨هـ/١٢٤٧-١٣٣٧م)

ولد محمد الحاج بكتاش الولي عام ١٢٤٥هـ/١٣٣٧م في نيسابور، من أعمال ولاية خراسان، تعلم منذ طفولته عند الشيخ لقمان أفندي الذي كان خليفة الشيخ أحمد يسوى.

كان والده محمد الحاج بكتاش حاكماً على المقاطعة، ورفض حاجي بكتاش الرياسة من بعده، وفضل اللجوء إلى العبادة^(١).

فاختلى أربعين عاماً، مؤثراً العزلة في إحدى الصوامع، ولم يخرج منها. بعدها التقى الشيخ أحمد يسوى «واكتسب منه الفيوضات المعنوية وأشار عليه مرشدته بالشخصوص إلى بدخشان»، ثم أشار عليه «أستاذه ومرشدته أحمد يسوى، بالسفر إلى بلاد الروم، وأنباء الطريق مرجًّا على النجف وزار مقام الإمام علي بن أبي طالب، ومنها إلى مكة فالمدينة المنورة، ثم القدس فالخليل، فدمشق وحلب ثم إلى بلاد الروم»^(٢).

وفي آسيا الصغرى (بلاد الروم) اتخذت الناس من الأماكن التي نزل فيها «مقامات»، ثم زاره السلطان العثماني أورخان، وهو ثاني سلاطين الدولة العثمانية، ودعاه السلطان إلى حضور احتفال تأسيس جيش الانكشارية، وينقل أن حاجي بكتاش هو الذي أطلق عليهم هذا الاسم^(٣).

(١) أحمد سري بابا، الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة العلية البكتاشية، مصر: مطبعة الشرق، ١٩٣٩، ص. ٦.

(٢) المرجع نفسه، ص. ٧.

(٣) المرجع نفسه، ص. ٨.

«والشيخ الحقيقي هو شيخ الصحبة، لأنَّ الممد للمرید بحاله دون واسطة شيء آخر».

أما شيخ الخرقة، فأولاً يسري حاله في الخرقة ثم يسري في المرید، فخرقه التي أمدَّت المرید، وكذلك شيخ الذكر، ذكره الذي أمدَّ المرید^(٤).

وشيخ التعليم هو أستاذ الشريعة ودليل الطريقة، بخلاف شيخ الخرقة، فينبغي أن تكون مراعاة آداب شيخ التعليم أكثر وهو باسم المشيخة أحق^(٥).

ومن الشروط المطلوبة كي يصبح أحدهم شيخاً، الآتي: «من لم يصح له نسب إلى القوم فهو لقيط في الطريق لا أب له ولا يجوز له التصدِّي والجلوس لإرشاد المریدين، إلا بعدأخذته بآداب الطريق من شيخ كامل، مجمع على جلالته وخبرته في الطريق، ثم يؤذن له صريحاً بأن يرشد ويلقن ويلبس الخرقة على شروط ما كان عليه السلف»^(٦).

وبعد وفاة الشيخ بهاء الدين، انتشرت الطريقة النقشبندية وحَلت مكان اليساوية شيئاً فشيئاً مع الأخذ في الاعتبار أن الأسس والقواعد العامة للنقشبندية كانت نفسها في اليساوية^(٧).

(١) المرجع نفسه، ص. ٥٠.

(٢) النقشبندى، المرجع السابق، ص. ٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص. ١٦.

(٤) كوريلى، المتصوفة الأولون، المرجع السابق، ص. ١٨٩.

- ٤- الدرويش: الذي يتبحر في آداب الطريقة وعلومها، ويعلم بأركانها ومبادئها، ويهب نفسه للخدمة العامة فيها.
- ٥- البابا: هي درجة المشيخة ولا يصل إليها الدرويش إلا بعد مدة طويلة، حيث يكون قد عرف الرموز الصوفية وأحاط بها.
- ٦- الددة: وهو الخليفة، ولا يمنح هذه المرتبة إلا شيخ المشايخ، ويكون رئيساً لأحد الفروع.
- ٧- الددة بابا: شيخ المشايخ، ويتخبو من بين الخلفاء، وهو المدير العام لشؤون الطريقة في العالم، وهو الذي يعين الباباوات وله حق عزل المشايخ^(١).

التكية البكتاشية

هي عبارة عن ضيعة كبيرة، تضم عادة قصراً فخماً، وقبوراً مزخرفة، يقيم بها الدراويش بشكل دائم، وتضم التكية في الأغلب المواشي، كما تحصل على الإتاوات والأرزاق^(٢) من المستسين إلى الجماعة في البلدة حيث توجد التكية، حيث يفرض قربان على كل زائر، عليه أن يقدمه للتکية^(٣).

أما طريقتهم في التصوف، فهي تتركز على التقشف والنظام الصارم والمساواة بين الأديان^(٤).

(١) عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الكويت: مكتبة ابن تيمية، ط٢، ص ٤١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤١٦.

(٤) عبد المنعم حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٥.

بعدها عمد حاجي بكتاش إلى إرسال الخلفاء والنقباء إلى مختلف الأنحاء وجعل لكل منهم إقليماً^(١). يقول أحمد سري بابا، شيخ تكية سيدنا أبي عبدالله المغاوري في تعريف البكتاشية: «الطريقة العلية البكتاشية هي طريقة آل البيت الأطهار، وهي مؤسسة على أوامر الشريعة السمحاء والتزام السنة السنّية».

ويضيف: «ولطريقتنا العلية آداب وأصول خاصة بها في كيفية تهذيب النفس وتنقيتها وتعليمها وواجباتها الدينية والدنيوية»^(٢). أما أصولها التي انحدرت منها: فيقول: «والطريقة العلية البكتاشية قد انحدرت أصولها من سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده إلى أن وصلت إلى مشايخنا الكرام كابرًا عن كابر»^(٣).

مراتب الطريقة البكتاشية

- للطريقة البكتاشية عدة مراتب هي:
- ١- العاشق: وهو الذي يحب الطريقة ويتعلق بمبادئها وتسيطر عليه روح البكتاشية وله رغبة في الانضمام إليها.
 - ٢- الطالب: هو من يعلن رغبته في الانضمام ويرشحه الشيخ.
 - ٣- المحب: هو الذي انتسب إلى هذه الطريقة.

(١) أحمد سري بابا، المرجع السابق، ص ٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

- ٣- التوكل على الله.
- ٤- القناعة.
- ٥- العزلة.
- ٦- ملازمة الذكر.
- ٧- الوجود إلى الله.
- ٨- الصبر على الآلام والتغلب على الشهوات.
- ٩- التأمل.
- ١٠- الرضا^(١).

وتوسيع تعاليم الشيخ نجم الدين كبرى لتصل من وسط آسيا إلى خراسان، والهند، وإلى غرب آسيا^(٢) وتفرعت من الكبراوية عدة فرق هي:

- الفردوسية.
- النورية.
- الركنية.
- الحمدانية.
- الاغتشاشية.
- النوربختشيه^(٣).

واعتبرت البكتاشية الطريقة الأهم التي جاءت بعد الطريقة اليساوية^(٤).

٣- الكبراوية

وهي تنتسب إلى نجم الدين كبرى (٥٤٠/١١٤٥ - ١٢٢١م)، ولد في خيوة في خوارزم، وقام بعدة رحلات إلى مصر وأذربيجان وإيران، حيث تعلم الدراسات الصوفية^(٥). يعتبر نجم الدين كبرى من كبار المنظرين الصوفيين، ولديه عدة مؤلفات في التصوف^(٦).

بني خانقاہ في خوارزم، حيث قصده العديد وتلمندوها على يديه، ومنهم مجذ الدين البغدادي (ت ١٢١٩/٦١٦ م)، والشاعر الفارسي فريد الدين العطار (ت ١٢٢٥/٦٢٢ م).

واستقرت الكبراوية حول ضريح مؤسسها، الذي ألحق به العديد من الأبنية والمؤسسات^(٧).

وضع الشيخ نجم الدين كبرى عشرة مبادئ تؤدي إلى نيل رضا

الله تعالى:

- ١- التوبة الصادقة والحب لله.
- ٢- الزهد في الدنيا.

(١) كوبيرلي، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) بوريبيوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤) ترمنغهام، المرجع السابق، ص ١٠١.

(١) بوريبيوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧١.

(٣) ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠١.

وقد عرف جلال الدين بالمولوي، وإليه تنسب طرق الدراوיש المولوية (الدراوיש الراقصون).

وضع من أبيات الشعر حوالي خمسة وعشرين ألفاً، وهي بمعظمها غزليات صوفية، بالإضافة إلى القصص والمواعظ والأمثال^(١).

حتى قال عنه ترمنجهام: «متصوف زاهد يحول رؤاه إلى شعر فارسي ملهم»^(٢).

ولا تزال الطريقة المولوية أو الجلالية، موجودة في كل من سوريا وتركيا إلى اليوم، حيث يشاهد الدراوיש المولوية في المناسبات وبعض الاحتفالات التي يشاركون فيها^(٣).

ورد في الموسوعة الصوفية حول أسلوب جلال الدين الرومي في نظمه للشعر الصوفي، الآتي: «وأسلوب الرومي في أدبه الصوفي: قوي البنية، فيتاين الخيال، بارع التصوير، يوضح المعنى الواحد في صور مختلفة، ويسوق المثل إثر المثل، وبحور الشعر تطاوئه حتى ينظم حول القصة القصيرة مئات الأبيات ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعظات والعبر»^(٤).

(١) عبد المنعم حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٢) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ٢٢٧.

(٤) حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

٤- المولوية

تنسب إلى جلال الدين الرومي (٦٠٤/١٢٧٣-١٢٠٧/٥٦٧٢).

وهو من أبرز شعراء التصوف الفرس^(١).

كان جلال الدين من بلخ، وعاش في قونية، وأنثاء وجوده هناك جاء إلى المدينة «صوفي عجيب هو شمس تبريزي ليخطب في أهلها»، وبلغ تأثير جلال الدين به أن دفعه ذلك إلى تأسيس المدرسة المولوية التي لا تزال قونية عاصمتهم إلى اليوم.

وضع جلال الدين مئات القصائد، و«التصبع هذه القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني من عهد المزامير (مزامير داود)، وكتابه اعتبر ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس، وفيها مفردات بارعة الجمال»^(٢).

يقول فيليب حتى: «وقد خرج جلال الدين الرومي على المؤثر من تقاليد الإسلام فأقام للسماع (الموسيقى) مكاناً في مراسم طريقته الصوفية، وظلت زعامة هذه الطريقة متوارثة في أبناء جلال الدين وأحفاده، وكان أن تمعن الرعيم منهم بشرف تقليد السلطان الجديد من خلفاء بنى عثمان السيف»^(٣).

(١) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط ٣، ص ٢٢٤.

(٢) ول دبورانت، قصة الحضارة، بيروت: دار الفكر، د. ت، ج ٣، ص ٣٤٩ و ٣٥٠.

(٣) فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

لعبت دوراً بارزاً في دخول الإسلام وترسيخه في منطقة القوقاز، ولديها العديد من التكايا المنتشرة إلى الشمال من أذربيجان والداغستان، وقازاقستان، وقيرغيزيا.

وطريقته توجد على شكل جماعات مرتبطة بالمشايخ الذين يعمدون في التكايا إلى الإنشاد عن طريق الغناء، والموسيقى، والرقص.

وبالتالي هي عكس النقشبندية في عدم التطرف، حيث تميزت القادرية بالتعصب، ومعادة الأجنبي، ورفض الصلح مع الملحد^(١). لقب الشيخ عبد القادر الجيلاني عند المتصوفة بـ: «شيخ الكل والعارف الرباني، والمعدن الصمداني، وباز الله الأشهب، محبي الدين»^(٢).

والتصوف عنده يصل إلى «الجوع وقطع المألفات والمستحسنات»، بل عليه أن يصل إلى خصال الأنبياء: كالصبر الذي تحلى به أیوب^(ع).

وعلى الصوفي الزهد في الدنيا «بحيث تأتيه الأشياء فلا يريد لها ولا يبغضها».

وعلى أتباعه الالتزام بالأداب الشرعية، سواء في السلوك مع المشايخ (مشايخهم) أو فيما بينهم، ومن خلال الذكر والمجالس وخدمة الإخوان^(٣).

(١) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) عبد المنعم حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

الطريقة القادرية

مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، وهو من جيلان في طبرستان، درس على حماد الدباس، وتفقه على مذهب أحمد بن حنبل^(١).

أقام في مدرسته التي اتخذ منها رباطاً حتى مات، وقصده المریدون من كافة المناطق والبلدان^(٢).

يعرّفه ابن كثیر بقوله: «ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي... دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وقد كان بنى مدرسة ففوّضها إلى الشيخ عبد القادر، فكان يتكلّم على الناس بها، ويعظّهم، وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وكان له سمعة حسنة، وصمت، غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه تزهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاففات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاففات أكثرها مغالة، وقد كان صالحاً ورعاً، وقد صنف كتاب الغنية وفتح الغيب، وفيهما أشياء حسنة، وذكر فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ... دفن بالمدرسة التي كانت له»^(٣).

انتقلت مدرسة الجيلاني من بغداد إلى آسيا الوسطى عن طريق التجار، وظهرت في فرغانة في القرن الثاني عشر للميلاد.

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٢) عبد المنعم حفني، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) ابن كثیر، البداية والنهاية، بيروت: دار إحياء التراث، العربي، ١٩٩٧، ص ١٩٩.

التصوف إلا عن طريق الشرع، فهو يعتبر أن حدود التصوف هي حدود الشريعة وعقيدة السلف^(١).

والفروض الواجبة من الله تعالى على العباد عند الجيلاني، وذلك بعد التمسك بالكتاب والسنّة ومذهب السلف، هي:

١- العلم: «هو أول فرض فرضه الله تعالى على العباد والواجب تحصيله»^(٢).

٢- العمل: هو لب العلم فبدونه يبقى العلم مجرد قشور، يقول الجيلاني في ذلك: «ويلٌ واحد للجاهل، كيف لم يعلم... وويلٌ للعالم سبع مرات، لأنّه علم وما عمل، فارتقت عنّه بركة العلم وبقيت عليه حجّته»^(٣).

٣- التوبة: وهي أولى مراتب السالكين نحو الصوفية، هي عند الجيلاني والصوفية بشكل عام أصل كل خير وفروعه، ومفتاح القرب إلى الله تعالى^(٤).

أما شيخ الطريقة عند القادرية، فهو المرشد الروحي، وقد حصل الطريق من شيخ غيره وبالسلسل عن الرسول(ص)^(٥).

ويقول الجيلاني: إنه لا بد لكل مرید من شيخ فهم الطريق إلى

(١) يوسف زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية، مصر: دار الجيل، ط١، ١٩٩١، ص ٢١.

(٢) يوسف زيدان، المرجع نفسه، ص ٢٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٢-٣١.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٤.

ويعتبرون أن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة وعلى المرید التزام الكتاب والسنّة حرفيًّا.

«والجيلاني لا يشتبط في التنظير لطريقته، ويحصرها في عدد من المقامات يربط بينها وبين المعروف عند أهل السنّة منها: وعلى المؤمن أن يكون فيسائر أحواله على ثلاثة أشياء: أمر يمثّله، ونهي يجتنبه، وقدرٌ يرضى به، والالتزام بكتاب الله وسنة نبيه»^(٦).

الفضائل عند

- ١- مجاهدة النفس عن هواها.
- ٢- التوكل على الله.
- ٣- حسن الخلق مع الناس.
- ٤- التذكرة لله.
- ٥- الصبر على قضائه.
- ٦- الرضا بقدرها.
- ٧- الصدق في كل أمره^(٧).

يذهب الجيلاني إلى القول أنه لا سبيل إلى دخول ميدان

(٦) عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

وصفات آداب الإخوان هي:

- الفتوة والإيثار والصفح عن العثرات.
- التواضع والموافقة للإخوان وترك مخالفتهم ومناظرتهم.
- التعامي عن عيوبهم.
- المحبة لهم والشفقة عليهم.
- أن لا يريد المرید لنفسه حقاً على واحد من إخوانه^(١).
- وتشدد الطريقة القادرية على ضرورة مجاهدة النفس، وهي تكون عبر:

 - قطع مألف العادات.
 - المخالففة، مخالففة الهوى^(٢).
 - الرياضة، رياضة النفس وتكون عبر الجوع والصمت والسرير والخلوة^(٣).
 - محاسبة النفس ومراقبتها^(٤).

ولأهل المجاهدة في هذه الطريقة عشر خصال هي:

- ١- ترك الحلف بالله إطلاقاً.
- ٢- اجتناب الكذب في الجد والهزل.
- ٣- عدم إخلاف الوعد.

(١) يوسف زيدان، المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٧٠.

الله تعالى، وهذا الشيخ هو الدليل على الخالق والباب الذي يدخل منه إليه، فالمرید الذي ينفرد برأيه ولا يصحب شيخاً فقد ضلّ وكان له الشيطان قائداً وشيخاً^(٥).

وبالتالي فالمطلوب من المرید تجاه الشيخ هو:

الطاعة الظاهرة والباطنة^(٦).

الجلوس مع الشيخ على بساط الأدب.

إطلاع الشيخ على أحواله.

عدم اتهام الشيخ بإساءة قلبية.

التهيؤ الدائم لخدمة الشيخ^(٧).

الصدق في الصحبة لله تعالى.

الصبر على خشونة الشيخ^(٨).

وهذا لا يكفي، بل على المرید أن يكون على علاقة جيدة مع غيره من المریدين، وهي آداب الإخوان، فالطريق الصوفي له خطان: أحدهما عمودي وذلك عبر الطاعة للخالق، والآخر أفقي ويكون بمعاملة الخلق بالأدب^(٩).

(١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٣.

من أراد منكم صحبتي.
فعليه بالفقر.
ثم فقر الفقر.
ثم الفقر عن الفقر.
فإذا تم فقرهم، فلا إثم إلا أنا^(١).
والجدير ذكره، أن عوامل عدة ساهمت في انتشار القادرية بعد
وفاة مؤسسها وهي:
١- ترك الإمام الجيلاني ذرية كثيرة، فقام أولاده وأحفاده من بعده
بإحياء الطريقة.
٢- أصول هذه الطريقة كان واضحاً وسهلاً أنها من الكتاب والسنّة^(٢).
٣- كان الجيلاني قد لقّن هذه الطريقة للعديد من الصوفية والعديد
منهم بايعوه^(٣).
٤- توزع الطريقة القادرية وانتشارها وحصولها على نوع من
اللامركزية، وخصوصاً بعد نهاية مركزها في بغداد عام ٦٥٦
هـ/١٢٥٨ م) والغزو المغولي، لتحول الفروع إلى أصول
وتساهم في انتشار الطريقة والحفاظ عليها بشكل أكبر وأوسع^(٤).

- (١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ١١٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٧.
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٨.

- ٤- الحذر من إيذاء الخلق ولعنهم.
٥- تحمل الظلم من الخلق واجتناب الدعوة عليهم.
٦- حسن الظن بأهل القبلة.
٧- كف الجوارح عن النظر إلى المعاصي.
٨- رفع المؤونة عن الخلق والاستغناء عنهم.
٩- قطع الطمع عن النفس والانقطاع إلى الله تعالى.
١٠- التواضع^(١).

والتواضع عند الجيلاني هو مخ العبادة وأصل الطاعات وشرف
الزاهدين المتنسّكين^(٢).

أما حسن الخلق عند الجيلاني، فهو أفضل المناقب ولا يتركه
إلا منافق صاحب هوى، وهو فريضة في حق العارف كالتوبيه في حق
الجاهل^(٣)، ويعتبر الجيلاني حسن الخلق علامه من علامات الطريق
التي تظهر معرفة السالك لربه^(٤).

وللجيلاني قول مأثور حول القرب إلى الله تعالى
«يا غوث الأعظم.... قل لأحبابك.
وأصحابك.

- (١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ٧٢.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه، ص ٨٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٨٦.

الخاتمة

كانت بلاد ما وراء النهر بلاداً غنية بأرضها وسكانها، ازدهرت فيها كبرى مدنها، كسميرقند وبخارى، التي كانت تقع على خط طريق الحرير، ذلك الخط الذي يربط أسواق الصين بوسط وغرب آسيا وصولاً إلى أوروبا.

هذه البلاد التي عرفت، نظراً إلى موقعها في وسط آسيا، تلاقي مختلف الثقافات والديانات الشرقية والغربية، دخلها الإسلام منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وخضعت للحكم العربي الإسلامي منذ زمن الأمويين، وقد أثرَ انتشار الإسلام بين شعوبها مما ساهم في خلق ثقافة وفكر من خلال التصوف، انتشر بين أهلها بشكل واسع. فقد كانت الدعوة إلى الأمان والسكنية وللمزايا الأخلاقية التي حملتها الصوفية، أن دفعت بال العامة إلى المسارعة في تبني الطرق الصوفية وتقديس رجالاتها، هذا ما جعل الحكام يتقربون من رجال الصوفية، لكسب ود العامة من ناحية، ولتأييد قراراتهم التي يتخذونها ولدعمهم في حروبهم.

فكان هؤلاء المتصوفة أصحاب المكانة والسطوة والنفوذ في تلك البلاد.

كما أنه كان يغلب عليها وعلى دعاتها الاتجاه العملي التربوي^(١). وهكذا ظهرت معنا الطرق الصوفية الأساسية التي عرفتها بلاد ما وراء النهر، هذه الطرق الصوفية كانت نتاج نوع من التمازن الثقافي بين الترك والفرس والعرب، حيث ولدت أسماء لرجال من المتصوفة كانت لها القدرة على السيطرة على مشاعر العامة والتحكم في عقولهم. وقد يكون ذلك ولid الحالة الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي عرفتها تلك البلاد، حيث إن العامة كانت في معظمها من الطبقة الفقيرة - كما يبدو - فكانت هذه الطبقة تبحث عن أمان روحي، وأطمئنان نفسي، وجدته بالمتصوفة المقتشفين ذوي الطبائع السمحاء، المتميزين بالتواضع والمحبة.

هكذا تحول رجال الصوفية إلى حالة لا يمكن تجاوزها، دفعت الحكام إلى التقرب منهم واسترضائهم، لإمداد غaiاتهم وأهدافهم السياسية من ناحية، ولكسب العامة إلى جانبهم من ناحية أخرى. فكان هذا العصر هو عصر رجال المتصوفة بامتياز.

(١) التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ص ١٩.

المصادر والمراجع

أ- المصادر العربية

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٩.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣.
- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت: منشورات دار ومكتبة الحياة، ١٩٩٢.
- ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨.
- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١.
- ابن خلkan، وفيات الأعيان وأئمّة أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٧.
- ابن رسته، كتاب الأعلاف النفيسة، طبع في مدينة ليدن، بمطبعة برييل، ١٨٩٣.
- ابن الطقطقي، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق ممدوح حسن محمد، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٩.
- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٥.

ومن بلاد ما وراء النهر انتقل التصوف عبر الدراويش الأتراك المتنقلين إلى بلاد الهند جنوباً والأناضول وببلاد الشام غرباً. ومن أبرز الشخصيات الصوفية التي كان لها الأثر الأبرز في بلاد وسط آسيا، العلامة يوسف الهمذاني، الذي يعتبر مؤسس المدرسة الصوفية في وسط آسيا، وفي هذه المدرسة تخرج عدد من كبار رجال المتصوفة، منهم عبد الخالق غيجدوفاني (وهو خط فارسي)، وأحمد يسوي (وهو خط تركي)، ليستمر التصوف عبرهما لظهور فرق صوفية فرعية حلّت مكان مدرستيهما، وتستمر إلى وقتنا الحاضر، متجلسة من خلال النقشبندية والبكتاشية والمولوية وغيرها من الفرق الصوفية التي وعلى الرغم مما يشهده إعلامنا اليوم من تطور علمي وتكنولوجي، ورغم التطرف الديني، إلا أن هذه الطرق الصوفية لا تزال تجد أرضًا خصبة في عالمنا العربي والإسلامي، كما في تركيا ووسط آسيا، حيث لا تزال الطرق الصوفية تمتلك القدرات البشرية والمادية، وإن كانت أضعف من قبل.

- ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٩٩٤.
- ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور الزناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٨.
- الإصطخري، كتاب مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١.
- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٨.
- الشعالي، لطائف المعارف، نشر دي يونغ (ليون ١٨٦٧).
- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤.
- الزبيدي، طبقات النحوين واللغويين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٤.
- السمعاني، حيدر أبادة، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٩٦٢.
- الطبرى، تاريخ الطبرى، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨.
- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر د.ت.
- قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨.
- القلقشندي، صبح الأعشاش في صنعة الإنسنا، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، د.ت.

- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، بيروت: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠.
- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧.
- النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى، القاهرة: دار المعارف، ط٣.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ١٩٩٥.
- اليعقوبي، كتاب البلدان، طبع في مدينة ليدن بمطبعة برييل، ١٨٩٣.

بـ المصادر المترجمة

- الجويني، تاريخ فاتح العالم، جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، دمشق: دار إعلام، ط١، ١٩٨٥.
- الهمذاني، جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان، ترجمة فؤاد الصياد، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣.

جـ المراجع العربية

- إحسان إلهي ظهير، التصوف: المنشأ والمصادر، ط١، ١٩٨٦.
- إحسان بنت سعيد خلوصي، الطريق إلى سمرقند، دمشق: مطبعة هاشم، ط٢، ١٩٩٠.
- أحمد سري بابا، الرسالة الأحمدية في تاريخ مصر، مطبعة الشرق، ١٩٣٩.
- أحمد علي زهرة، الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، دمشق: دار نينوى، ٢٠١١.

- عبد الكريم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ٢، ١٩٩٩.
- فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، عمان: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣.
- الشيخ فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، تركيا: العبر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- فيليب حتى، تاريخ العرب، بيروت: دار غندور، ط ٩، ١٩٩٤.
- محمد أحمد درنية، الطريقة النقشبندية وأعلامها، بيروت: جروس برس، د.ت.
- محمد بن موسى الشريف، علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر، دون دار نشر ودون تاريخ.
- محمد بن الحسين النيسابوري، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨.
- محمد عبدالله الخالدي النقشبندی، البهجة السننية، طبعة بالأوفست، استانبول: مكتبة الحقيقة، ٢٠٠٢.
- محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، جدة: دار الشروق، ط ١، ١٩٨٣.
- المشخناوي النقشبندی، جامع الأصول، المطبعة الوهبية، ١٨٨١.
- هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، مصر: عين للدراسات، ط ١، ٢٠٠٤.

- السيد الباز العربي، المغول، بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٦.
- بدیعه محمد عبد العال، النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الأتراك، القاهرة: الدار الثقافية، ط ١، ٢٠٠٩.
- التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٩.
- حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، بيروت: دار الجيل، ط ١٤، ١٩٩٦.
- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة: كلمات، د.ت.
- زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، القاهرة: دار المعارف، ط ١٢.
- سعد بن محمد الغامدي، الفتح الإسلامي لبلاد وادي السند، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ٩، ١٩٨٨.
- صابر طعيمة، التصوف والفلسف، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ١، ٢٠٠٥.
- الصرفي، تاريخ دول الإسلام، القاهرة: الدار العالمية ط ١، ١٩٨٦.
- عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الكويت: مكتبة ابن تيمية، ط ٢.

- ستانلي بول، طبقات سلاطين الإسلام، القاهرة: الدار العالمية . ١٩٨٦.
- سفارة إلى تيمورلنك، ترجمة سهيل زكار، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٥.
- فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت المجلس الوطني للثقافة، ط١، ١٩٨١.
- كي ليسترانج بلدان الخلافة الشرقية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٥.
- محمد فؤاد كوبيريلي، المتتصوفة الأولون في الأدب التركي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٢.
- مویر سیر ولیام، الخلافة صعودها وبنوها وسقوطها، بيروت: ١٩٦٣.
- ول دیورانت، قصة الحضارة، بيروت: دار الفكر، د.ت.

و- معاجم:

- الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢.
- المعجم الوسيط، إسنيبول، المكتبة الإسلامية، د.ت.

- يوسف زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية، مصر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١.

د- المراجع الأجنبية:

- Hasan Lutfi Shushud, *Masters of wisdom of central Asia*, Inner Traditions, Rochester, Vermont, Toronto, Canada.
- Itchal Weizman. *The Naqshbandiyya*, Routledge, London and New York, 2007.

ه- المراجع المترجمة

- أرمينوس فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة محمود أحمد الساداتى، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت.
- بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سليمان، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٢.
- بوريبوبي أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩.
- جاستن مروذى، تيمورلنك، ترجمة مايا أرسلان، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١.
- سبنسر ترمنجهام، الطرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحرياني، بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٩٧.

قليلة هي الدراسات العربية التي أتت على تاريخ وسط آسيا، وقد يعود ذلك إلى قلة الاهتمام بتاريخ هذه البلاد العربيق، أو عدم إتقان لغتها، أو لكون بعضها كان جزءاً من الاتحاد السوفيتي السابق.

وإذا عدنا إلى تاريخ تلك البلاد التي يطلق عليها اسم «تركتستان»، لوجدنا أنها كانت تملك حضارة عريقة ومتعددة الينابيع، فهي متأثرة بالحضارة الصينية من جهة وبحضارة خراسان من جهة أخرى، كما أنها تحمل الكثير من الخصائص демографية السكانية المتعددة.

هذا عدا عن كونها كانت ممراً للقوافل التجارية، فربطت بين الصين، وأسواق المشرق العربي وأوروبا، وهو ما عرف حينها بطريق الحرير.

هذه المنطقة المميزة جغرافياً، والتي تضم بعض أبرز المدن العربية: «سمرقند، بخارى...» شهدت ظهور حركة التصوف بعد دخول الإسلام إليها عام ١٨٦٩هـ، وذلك للخصائص السمعية التي تحملها الطرق الصوفية من إيمان وأخلاق، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان.

د. طارق أحمد شمس، مواليد النبطية - لبنان.

- أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية - اختصاص في التاريخ الوسيط.

- له العديد من الأبحاث المنشورة في مجلات لبنانية وعربية.

صدر له:

• العولمة بين التاريخ والجغرافيا، بالمشاركة مع د. سعيد عبد الرحمن، دار العودة، ٢٠١٥.

• الدولة في فكر الطوسيين، دار العودة، ٢٠١٥.

• تاريخ الأقليات في المشرق العربي، بالمشاركة مع د. سعيد عبد الرحمن ود. يوسف كيال، دار الفارابي، ٢٠١٦.

A.
Antoine
PHILOSOPHIE -
SCIENCES HUMAINES

تاریخ التصوف فی وسط آسیا

DEPARTEMENT LIVRES ARABES

9 786144 325541
9000